مارغريت دوراس



عيون زرق شعر أسود

يليها نص
(لا شيء بعد الآن)

ترجمة: كامل عويد العامري

رواية



عنوان الكتـــاب: عيون زرق شعر أسود

اســـم المؤلـــف: مارغريت دوراس

اســـم المترجـــم: كامل عويد العامري

المـوضـــــــوع: روايـــة

عدد الصفحات: 168 ص

القيـــــــــاس: 14.5 × 21.5 سم

الطبعـة الأولى: 1000 / 2018 م - 1439 هـ

ISBN: 978-9933-38-024-3



سورية . دمشق . ص ب 4650

تلفاكس: 2314511 11 963+

هاتـــف: 2326985 11 963+

E-mail: info@ninawa.org
ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org

دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

 Ayman ghazaly

العمليات الفنية:

التنضيد والتدقيق والإخراج والطباعة - القسم الفني: دار نينوى

مارغريت دوراس

عيـــون زرق
شــعر أســود

رواية

يليها نص

لا شيء بعد الآن

ترجمها عن الفرنسية
كامل عويد العامري

العنوان الأصلي للرواية بالفرنسية

LES YEUX BLEUS CHEVEUX NOIRS

EDITIONS DE MINUIT
PARIS - FRANCE

مارغريت دوراس

Marguerite Duras

شاعرة وكاتبة مسرحية ومخرجة فرنسية. اشتهرت في فرنسا والعالم الفرنكفوني بالتنوع الأدبي والمعاصرة كما كانت كاتبة للقصص القصيرة وسيناريوهات الأفلام وهي تعتبر من أهم الأدباء الفرنسيين في النصف الثاني من القرن العشرين.

أول شهرة عرفتها دوراس كانت عبر روايتها «السيد في مواجهة الباسيفيك» التي صدرت عام ١٩٥٠ حيث تناولت طفولتها في الهند الصينية، ولكن شعبيتها نمت بفضل المسرح حيث أصدرت مسرحية «الميدان» عام ١٩٦٢ و«أيام بأكملها بين الأشجار» عام ١٩٦٨ وعرفت على نطاق أوسع عبر سيناريو فيلم «هيروشيما حبيبتي» و«الأغنية الهندية» ولكن النجاح الساحق لرواية «العاشق» الصادرة عام ١٩٨٤ غطى على معظم أعمالها الأخرى ونالت عنها جائزة غونكور الرفيعة مما جعلها واحدة من أكثر الروائيين الفرنسيين المقروئين. توفيت في ١١ نيسان ١٩٩٦ في باريس.

إلى

يـــان أندريـــا

جوهر القصة، كما يقول الممثل،
هو أمسية صيف.

الجو هادئ وليست هناك ولو نسمة خفيفة، وكان بهو فندق دي روش يسترخي أمام المدينة، بكواه ونوافذه المفتوحة، مستلقياً بين حمرة الليل في الغروب، وظل المتنزّه الخفيف.

في الداخل، تتحدث نساء مع أطفالهن عن أمسية الصيف، ومن النادر أن يتم اغتنام فرصة كهذه ثلاث أو أربع مرات في الموسم، قبل أن يأتي الموت، لأن أحداً لا يعرف إذا كان الله يشاء للمرء أن يعيش ثانية أماسي كهذه الأمسية.

في الخارج، يتجمع الرجال على رصيف الفندق، ونسمعهم بوضوح مثلما نسمع نساء البهو. إنهم يتحدثون أيضاً عن فصول صيف مضت على شواطئ الشمال. الأصوات خافتة تماماً في كل مكان، وهي تتحدث أيضاً عن جمال مساء صيف رائع.

ومن بين الناس الذين يتأملون مشهد البهو، يتقدم رجل منطلقاً من الطريق الخلفي للفندق، فيجتاز المتنزه ويقترب من نافذة مفتوحة.

وقبل أن يعبر الطريق بوقت قليل، بوقت لا يتجاوز بضع ثوان، تصل بطلة القصة إلى البهو، إذ كانت قد دخلت من الباب المطل على المتنزه.

حين يصل الرجل إلى النافذة، كانت هي هناك قبله، على بعد بضعة أمتار منه بين النساء الأخريات.

ومن حيث كان يقف، حاول الرجل جاهداً أن يرى وجهها، غير أنها، في حقيقة الأمر، كانت تلتفت نحو باب البهو الذي يطل على الشاطئ.

إنها فتاة في ريعان الشباب، تحتذي حذاء رياضياً أبيض، وفي إمكان المرء أن يرى جسدها فارع الطول والرشيق، وبياض بشرتها في هذا الصيف المشمس، وشعرها الأسود، ولكن ليس في الإمكان رؤية وجهها إلّا في مواجهة النور، من نافذة تطل على البحر ربما. إنها ترتدي بنطالاً قصيراً أبيض، وتلفّ حول جذعها شالاً من الحرير الأسود، معقوداً بإهمال، وفي شعرها شريط أزرق غامق اللون، يفترض أنه ينبئ عن زرقة عينين لا يستطيع أحد أن يراهما.

وعلى حين غرة، ينطلق صوت مناداة في الفندق، لا أحد يعرف صوت من.

كانت المناداة على اسم ذي نبرة حادة، مقلقة، تعاني من حرف علة باك وممدود بحرف (آ) الشرقي، يرتجّ بين القضبان الزجاجية للصوامت المتغيرة لحرف (t) على سبيل المثال أو حرف (L).

كان الصوت الذي ينادي واضحاً تماماً، حتى أن الناس توقفوا عن الكلام، وانتظروا ما يشبه توضيحاً لم يأت.

بعد حين من النداء، ومن خلال هذا الباب الذي تتطلع إليه المرأة، باب طوابق الفندق، دخل البهو للتو شاب غريب ذو عينين زرقاوين وشعر أسود.

يتبع الشاب الغريب المرأة الشابة، وهو مثلها، طويل القامة في ريعان الشباب أيضاً، ويرتدي ملابس رياضية بيضاء. يتوقف. إنها هي التي كان

قد فقدها. كان الضوء الذي تعكسه الشرفة يجعل عينيها مرعبتين بالزرقة. وعندما يقترب منها، نلاحظ أنه مملوء غبطة، بسبب عثوره عليها ثانية، ونلاحظ أيضاً أسى شديداً لأنه سيفقدها. سحنته بيضاء كسحنة العشاق، وشعره أسود. إنه يبكي.

لا نعرف من ذا الذي نادى بهذه الكلمة التي لم نفهمها، باستثناء أن هناك من يعتقد أنه ربما قد سمعها، وكأنها قدمت من غياهب الفندق، والممرات والغرف.

وما إن ظهر الشاب الغريب في المتنزه، حتى اقترب الرجل من نافذة الصالة من دون أن ينتبه إلى ذلك. كانت يداه متشبثتين بحافة النافذة، وكأن لا حياة فيهما، وقد أضنتهما مجاهدة التأمل وانفعال النظر.

تشير المرأة للشاب الغريب نحو الشاطئ، وتدعوه أن يتبعها. تمسك بيده، فيحاول مقاومتها إلى حد ما. يبتعدان عن نافذة الصالة، عن الاتجاه الذي كانت قد أشارت إليه، اتجاه مغيب الشمس.

يخرجان من الباب الذي يطل على البحر.

يبقى الرجل خلف النافذة المفتوحة. ينتظر. يمكث هناك وقتاً طويلاً، إلى حين مغادرة الناس، وهبوط الليل، ثم يغادر المتنزه ماراً بالشاطئ. يمشي مترنحاً مثل ثمل، يصرخ، يبكي كالبشر الذين أصابهم اليأس في السينما الحزينة.

هو رجل أنيق، ونحيل وطويل القامة، وبسبب الفاجعة التي عاشها في هذه اللحظة، بقيت النظرة غارقة في سذاجة الدموع والمظهر المميز تماماً للملابس الغالية جداً، والجميلة جداً.

إن حضور هذا الرجل المتوحد في شبه ظل المتنزه، جعل من المشهد متجهماً على حين غرة، وأدى إلى خفوت أصوات نساء الصالة تماماً إلى أن تتلاشى كلياً.

وفي ساعة متأخرة من الليلة التالية لهذه السهرة، في لحظة كان فيها جمال النهار ثاوياً بشدة مثله مثل تقلبات الدهر، يلتقيان.

وحينما يدخل هذا المقهى المطل على شاطئ البحر، كانت هي هناك مع أناس آخرين.

لم يعرفها، ولم يكن باستطاعته أن يعرفها، لو لم تأت إلى هذا المقهى بصحبة الشاب الغريب ذي العينين الزرقاوين والشعر الأسود. فغياب هذا الشاب الغريب يجعلها غير معروفة بالنسبة إليه.

يجلس إلى طاولة. ومما يزيد الطين بلة، هو أنها لم تره مطلقاً.

ترمقه، ولامناص من أن يفعل المرء ذلك، كان وحيداً وجميلاً ومنهكاً بسبب حالته المستوحدة، كان على درجة من الوحدة والجمال كأي إنسان في لحظة الاحتضار. يبكي.

أما بالنسبة إليها، فقد كان مجهولاً، وكأنه لم يكن قد ولد.

تترك الناس الذين كانت معهم، وتتجه نحو طاولة هذا الشاب الباكي الذي دخل للتو. تجلس قبالته، وتحدق فيه.

لم ير شيئاً منها، لم ير يديها الهامدتين على الطاولة، ولا الابتسامة الشاحبة، ولا حتى ارتجافها بسبب البرد.

ولم تكن قد رأته في شوارع المدينة قط. تسأله ما الذي جرى له. يقول لا شيء، لا شيء. ليس هنالك ما يدعو للقلق. إن رقة الصوت تمزق الروح.

ليس بوسعه منع نفسه عن البكاء.

تقول له: ليتني أمنعك عن البكاء. فتبكي. لم يكن يريد شيئاً حقاً. لم يسمعها.

تسأله إن هو يتمنى الموت، وإذا كانت تلك هي رغبته، الرغبة بالموت، فربما تستطيع مساعدته. تودُّ لو يستمر في الكلام أيضاً. يقول لا، لا شيء، لكي لا يثير الانتباه. لم تستطع أن تفعل شيئاً آخر.

تكلمه.

- أنت هنا لأنك لا تريد العودة إلى بيتك.

- وهو كذلك.

- أنت وحيد في بيتك.

وحيد، نعم. يبحث عن شيء يقوله. يسألها أين تسكن. إنها تسكن في فندق يقع في واحد من هذه الشوارع التي تطل على الشاطئ.

لم يسمع، ولم يكن يسمع. يتوقف عن البكاء. يقول إنه فريسة ألم لا يطاق، لأنه ضيّع أثر شخص كان يود أن يراه ثانية. ويضيف أنه مجبول على معاناة هذا النوع من الأمور في الغالب. إنه معتاد على مثل هذه الأحزان المريرة. يقول لها: ابقي معي.

تبقى. ويبدو أنه محرج إلى حدّ ما جراء الصمت. يسألها، وهو يعتقد في داخله أن عليه أن يتكلم، إن هي تحب الأوبرا. فتقول إنها لا تحب الأوبرا كثيراً، لكنها تحب كالاس كثيراً. كيف لا تحبها؟ تتكلم بصوت خفيض، كما لو أنها فقدت الذاكرة. تقول إنها تنسى، فهناك فيردي أيضاً فضلاً عن

مونتفردي. ولقد أشرت أنت، إلى أن هؤلاء هم الذين نحبهم حينما لا نحب الأوبرا كثيراً - وتضيف - حينما لم نعد نحب شيئاً.

لقد سمع ذلك، وسيبكي ثانية. شفتاه ترتجفان. واسما فيردي ومونتفردي هما اللذان يجعلانهما يبكيان معاً.

تقول إنها هي أيضاً تتأخر في المقاهي مساءً عندما تكون السهرات طويلة وساخنة جداً. فعندما تخرج المدينة كلها، ليس بوسع أحد أن يبقى في غرفته. إنها وحيدة هي أيضاً؟ نعم.

يبكي. هذا أمر لا ينتهي. إن البكاء أمر حسن. لم يعد يتكلم عن أي شيء، ولم يعد أيّ منهما يتكلم.

كانا هناك حتى أقفل المقهى.

هو قبالة البحر وهي أمامه، في الجانب الآخر من الطاولة، تحدق فيه طوال ساعتين من دون أن تراه. يتذكران بين الحين والآخر، ويبتسمان من خلال الدموع، ثم يعودان إلى النسيان.

يسألها إن هي بغي. لم يدهشها ذلك، ولم يضحكها أيضاً. تقول:

- بشكل ما، ولكن من دون مقابل مادي.

كان يظنها أيضاً من عداد العاملين في المقهى. أليس كذلك؟

تتسلى بمفتاح كي لا تحدق فيه.

تقول: إنني ممثلة. أنت تعرفني. لم يعتذر عن عدم معرفته لها، ولم يقل شيئاً. هذا رجل لم يعد يصدق أي شيء. عليه أن يفكر بأنها تكتشفه.

ولأن المقهى كان مغلقاً، فقد وجدا نفسيهما في الخارج. لقد كان يتأمل السماء في مستوى البحر. وفي الأفق، كانت لاتزال آثار للغروب واضحة. لقد كان يتكلم عن الصيف، وعن هذه الأمسية الاستثنائية بعذوبتها. ولأنه لم يكن يبدو عليها أنها تعرف ماذا يعني هذا، فقد قالت له: إنهم يغلقون لأننا نبكي.

تقوده إلى حانة بعيدة كثيراً في البراري، على الطريق الدولي. وهناك يبقيان حتى شروق الشمس. وعند ذاك يقول لها إنه يمر بوقت عصيب.

تقول: في ساعتك الأخيرة. ولم تبتسم. يقول نعم، وهو كذلك. وهذا ما كان يظنه ولا يزال يعتقده. يبتسم ابتسامة متصنعة. يقول لها أيضاً إنه كان يبحث في المدينة عن شخص ما يوّد أن يراه ثانية، وإنه لهذا السبب كان يبكي. يبحث عن شخص لم يكن قد تعرف عليه، وكان له أن رآه مصادفة هذا المساء بالذات، وإنه كان هو الشخص الذي كان ينتظره دائماً، وإنه كان يود أن يراه ثانية مهما كان الثمن، حتى ولو كلفه الأمر حياته. هكذا كان الأمر.

تقول: يا لها من مصادفة. وتضيف:

– لهذا السبب اقتربتُ منك، ويبدو لي أن القنوط هو السبب.

تبتسم، وهي مضطربة بسبب استخدام هذه الكلمة. لم يفهم. ولأول مرة يحدق فيها. يقول: أنت تبكين.

يتفحصها بشكل أفضل. يقول:

– بشرتك بيضاء تماماً. يمكن القول إنك وصلت إلى شاطئ البحر منذ وقت قريب.

تقول إن تلك هي بشرتها التي لم تتعرض للشمس. هذا هو حالها - ولقد همّت بقول شيء آخر ولكنها لم تقله.

يحدق فيها باهتمام كبير، حتى ينسى أنه يلتقي بها كي يتذكر بشكل أفضل. يقول:

- يا له من أمر غريب. يبدو لي وكأنني التقيت بك قبل الآن.

تتأمل، وتحدق فيه. تحاول أن تتذكر أين ومتى حصل ذلك. تقول:

- كلا. لم أرك قط قبل هذه الليلة.

يعود إلى البشرة البيضاء، وبمثل هذه الطريقة يمكن أن تكون البشرة البيضاء ذريعة للبحث عن سبب للدموع. لكن لا. يقول:

- إنه لمن النادر دائماً... عينان زرقاوان كعينيك ترعبانني دائماً بشكل ما... ولكن ربما يكون ذلك بسبب شعرك شديد السواد...

إنها معتادة على سماع من يكلمها عن عينيها، فتجيب:

- الشعر الأسود والشعر الأشقر يضفيان على العينين زرقة متمايزة، وكأن ذلك يأتي من الضفيرة، ولون العيون. إن الشعر الأسود يجعل من زرقة العيون زرقة نيلية، وشيء ما من مسحة مأساوية أيضاً. حقاً. بينما يجعل الشعر الأشقر العيون الزرقاء أكثر صفرة وأكثر رمادية، بحيث لا تثير فزعاً.

إنها تتحدث، من دون شك، بما كانت قد تجنبت قوله آنفاً:

- لقد التقيت بشخص يمتلك هذا النوع من الزرقة في عينيه، لم أكن ألمح مركز النظر، ومن أين تأتي، وكأن الزرقة كلها كانت تنظر.

ينظر إليها نظرة خاطفة، فيدرك أنها تصف عينيها هي بالذات.

تبكي، ويا له من نشيج حاد! إنه يندفع بقوة هائلة، وهي التي لا طاقة لها على البكاء.

تقول:

- اعذرني، وكأنني ارتكبت جريمة، ليتني أموت.

يخشى أن تتركه هي أيضاً، وتختفي في المدينة. لكن لا، ها هي تبكي أمامه، وعيناها مفضوحتان وتفيضان دموعاً. لقد فضحتها عيناها.

يمسك يديها، ويقربها من وجهه.

يسألها إن كانت هاتان العينان الزرقاوان هما اللتان جعلتاها تبكي.

تقول وهو كذلك، نعم. ولا مناص من ذلك، وهذا ما بالإمكان قوله.

تسلم يديها له.

يسأل متى كان ذلك.

اليوم.

يقبل يديها مثلما يفعل ذلك مع وجهها وفمها.

يقول إن رائحتها رقيقة وعذبة بسبب التدخين.

تدنو فمها منه ليقبله.

تطلب منه أن يقبلها، هو، ذلك المجهول.

تقول: إنك تقبل جسدها العاري، وفمها وبشرتها وعينيها.

يبكيان حتى الصباح بأسىً قاتل في ليلة صيف.

يغمر الظلام الصالة وتبدأ المسرحية.

يقول الممثل، سيكون المشهد على شكل صالة استقبال مؤثثة بأثاث فاخر إنكليزي، مريح وباذخ، من خشب الأكاجيو الداكن. وهناك عدد من الكراسي والطاولات والمقاعد. على الطاولات سنجد فوانيس، والعديد من نسخ الكتاب نفسه، ومنافض سجائر وأقداحاً وغرافات ماء، وعلى كل طاولة توجد باقة تتكون من زهرتين أو ثلاث. كل ما في المكان يوحي بأنه مهجور منذ عهد قريب وكأنه مكان مأتمي.

وشيئاً فشيئاً تنتشر رائحة، هي في الأصل مكتوبة هنا، من البخور والورد، وستصبح الآن عديمة الرائحة وهي مفعمة بغبار الرمل، ويفترض أن وقتاً طويلاً قد مرّ بالفعل منذ أن انتشرت الرائحة.

وصف الديكور ووصف الرائحة الجنسية، ووصف الأثاث، والأكاجيو الداكن، لا بد أن يقرأه الممثلون بصوت مصاحب لسرد القصة، حتى ولو أن عناصر هذا الديكور، التي ليست كما في المسارح الأخرى، حيث ستمثل فيها المسرحية، لا تتفق مع الملفوظ الذي يلفظ هنا، فإنها ستبقى غير متغيرة. وفي هذه الحالة، على الممثلين أن يتصرفوا بناء على أن الرائحة، والأزياء، والألوان، خاضعة للمكتوب، ولقيمة الكلمات ولشكلها.

إن الموضوع يتعلق دائماً بهذا المكان المأتمي، وبغبار الرمل، وبخشب الأكاجيو الداكن.

ستنام، يقول الممثل، وستتظاهر بالنوم. إنها في وسط الغرفة الفارغة، على شراشف بيضاء مفروشة مباشرة على الأرض.

إنه يجلس على مقربة منها، يتطلع إليها بين الحين والآخر.

في هذه الغرفة لا توجد كراسٍ. ولذا كان عليه جلب الشراشف، ومن ثم إغلاق غرف البيت الأخرى غرفة غرفة وباباً إثر باب وبالتتابع، أما هذه الغرفة، فتطل على البحر والشاطئ. ولا توجد هنالك حديقة.

وكان أن وضع هناك ثريا ذات ضوء أصفر.

ليس بالضرورة أن يعرف بوضوح سبباً لهذه الأشياء التي قام بها مع الشراشف والأبواب والضوء.

تنام.

لم يتعرف عليها، يحدق فيها أثناء نومها، ينظر إلى اليدين المفتوحتين، وإلى الوجه الذي لايزال غريباً وإلى النهدين، والجمال، والعينين المغمضتين. فلو أنه ترك أبواب الغرف الأخرى مفتوحة، لذهبت لتفحصها من دون شك، هذا ما كان يقوله في نفسه.

يحدّق في الساقين المسترخيتين، الناعمتين كنعومة الذراعين والنهدين. وعلى هذا النحو فإن عملية التنفس واضحة وعميقة، وتحت بشرة صدغيها يتباطأ تدفق الدم النابض بهدوء جراء النوم.

وباستثناء هذا الضوء الوسطي ذي اللون الأصفر الذي يتساقط من الثريا، فإن الغرفة معتمة، ومستديرة، وكأنها مغلقة، من دون أن نجد أي صدع حول الجسد.

هي امرأة.

تنام. تتظاهر أنها نائمة. لا نعرف. يبدو كيانها كله غارقاً في النوم، بما فيه من عينين ويدين وروح. لم يكن الجسد في حالة مستقيمة، إنما ينقلب قليلاً على الجانب نحو الرجل. الأشكال طيعة، وترابطها غير منظور. على الفم

ترتسم كلمات، وهي كلمات نابعة من تشتت الأشكال تحت البشرة التي تغطيها.

الفم مفتوح بشكل رشيق، والشفتان عاريتان، متشققتان بسبب الريح، وكانت أن حاولت التغلب على المتاعب. لقد كان الجو بارداً.

لا يعني أن هذا الجسد النائم لا حياة فيه، بل على العكس، فهو حتى في هذه الحالة التي يبدو فيها نائماً، يعرف متى ينظر شخص ما إليه. ويكفي أن ينفذ رجل إلى منطقة الضوء كي تمّر به حركة مباغتة، فتنفتح العينان وتترصدان بقلق إلى أن يتعرفا عليه.

كان ذلك على الطريق الخارجي عند بزوغ الشمس، حينما أغلق المقهى الثاني بابه. وهناك قال لها إنه يبحث عن امرأة شابة ينام قربها بعض الوقت، وإنه كان يخشى أن يصاب بالجنون، وكان يريد أن يكافئ هذه المرأة. تلك كانت فكرته، إذ أنه يجب مكافأة النساء كي يمنعن الرجال من الموت والجنون، وكان لايزال يبكي، وقد هدّه التعب الذي ألمّ به. لقد جعله الصيف يشعر بالخوف. إنه منعزل في الصيف، حيث تكون الحمامات البحرية مملوءة بالأزواج، وبالنساء والأطفال، والجميع يمزحون ويمرحون في كل مكان، في المقاهي والشوارع والفضاءات العديدة.

وفي أتون ضوء النهار الهائل، تراه للمرة الأولى.

إنه رشيق، ورغم الفاجعة التي أصابته في هذه اللحظة بالذات، فقد بدت ملابس الصيف غالية جداً وجميلة جداً، إلا أن هذه النظرة الغارقة في سذاجة الدموع كانت تسهم في نسيان الملابس. يداه بيضاوان، وجسده رشيق، فارع الطول مثلها، وكان يبدو أنه قد تدرب على ممارسة الرياضة

المدرسية في وقت مبكر جداً من حياته. يبكي. وحول عينيه بقايا من كحل أزرق.

تقول له إن امرأة مدفوعاً لها ربما ستعود مباشرة إلى ذات الشخص إلاّ إذا لم يكن هناك أحد. وهو يقول إنه على يقين أنه يريدها هكذا، بلا حب بالنسبة إليه، ولا شيء سوى الجسد.

لم يكن يريد أن تعود في الحال. فخلال ثلاثة أيام كان يحدث نفسه أن الوقت مواتٍ للقيام بالترتيبات اللازمة.

وكان أن استقبلها بحذر، وببرودة. لقد كانت يداه جامدتين في الصيف، وكان يرتجف، وكان يرتدي ثياباً بيضاء كالشاب الغريب ذي العينين الزرقاوين والشعر الأسود.

لقد طلب عدم الإفصاح عن اسمه وعن لقبه. ولم يقل لها شيئاً، ولم تطلب هي شيئاً. قدم لها العنوان، وكانت تعرف المكان، والبيت. لقد كانت تعرف المدينة جيداً.

كانت الذكرى مشوشة ومؤلمة. ولقد كان السؤال مخجلاً، ولكن ليس هنالك من بدّ أن يفعل المرء ذلك. في المرات التي تجلس فيها، يتذكرها داخل المقهى، امرأة أخرى، بتلك العذوبة الجسدية للصوت، وبتدفق الدموع على الوجه البض. عينان زرقاوان، حيث يمكن الوقوع في عدم التمييز.

تنام، وإلى جانبها، على الأرض، قطعة من الحرير الأسود. كان يريد أن يسألها من أجل أي شيء يمكن أن تستخدمها، ثم يتخلى عن ذلك، ويقول في نفسه، إن القطعة تستخدم في الليل لحماية العيون من الضوء على وجه

العموم. وهنا، فإن هذه القطعة السوداء تحمي من الضوء الأصفر، المتساقط من الثريا والذي تعكسه الشراشف البيضاء.

لقد وضعت حاجاتها قرب الحائط، وهي تتكون من ملابس رياضية قصيرة بيضاء، وثياب قطنية بيضاء أيضاً، وشريط غامق الزرقة.

إنها تستيقظ. لم تفهم ماذا يجري الآن. أما هو فقد كان يجلس على الأرض يحدق فيها، يدنو من وجهها برفق، تندّ عنها حركة دفاع، ولكن بالكاد تغطي عينيها بذراعها. يفهم ذلك. يقول: أتأملك ولا شيء آخر. لا تخافي. تقول إن ذلك من جراء المباغتة وليس بسبب الخوف.

يبتسمان لبعضهما. يقول: لست معتاداً عليك. لقد كان منهاراً، وكان يرى الدنيا حالكة السواد.

في العينين، ومع الابتسامة خليط مشوش من الأسى القانط، ودموع سهرة صيف.

لم تطلب شيئاً. يقول:

- ليس بوسعي لمس جسدك. ولا أقدر أن أقول لك شيئاً آخر، لا أستطيع، فهذا فوق طاقتي، وخارج إرادتي.

تقول إنها عرفت ذلك منذ التقت به في هذا المقهى على شاطئ البحر.

تقول إنها في شوق لهذا الرجل ذي العينين الزرقاوين الذي تحدثت إليه في المقهى، وإنها مشدودة ومتلهفة إليه وحده. وهذا الأمر له أهمية كبيرة بالنسبة إليها.

يقول إنه يريد أن يجرب احتواء الجسد بيديه تحسباً لكل طارئ وربما من دون أن ينظر، فهنا لا يفعل المرء شيئاً سوى النظر. يحاول ذلك، يضع يديه

مثل أعمى على الجسد، يمسك النهدين، والوركين، بما فيه من نضارة بشرة عارية، وبحركة عنيفة يطوح به كاملاً، وفيما يشبه دفعة، وصفعة رقيقة يسقطه، فيطرحه أرضاً. يصبح الوجه نحو الأرض. يتوقف، وهو مندهش لشراسته، يسحب يديه، ولم يعد يتحرك. يقول: هذا ليس بالأمر الممكن.

تبقى كما هي ووجهها نحو الأرض. وعندما تنهض، تجده واقفاً عند رأسها بثبات. لا يبكي. لا يفهم. ينظر كلّ منهما إلى الآخر.

تسأل:

- ألم يحصل لك هذا أبداً؟

- أبداً.

لم تسأله إن كان يعرف مصدر هذه المتاعب التي يشهدها في حياته.

- تريدين القول، مع امرأة في وقت ما.

- وهو كذلك، في وقت ما.

رقة الصوت حاسمة.

تردد، وتبتسم:

- بالنسبة إلي ليس لدي رغبة مطلقاً.

- أبداً. ما عدا - يتردد - في هذا المقهى، عندما تحدثت عن هذا الرجل الذي شغفت به حباً، بسبب عينيه، في اللحظة التي قلت له إنني أتوق إليك.

تنشر الحرير الأسود على وجهها. ترتجف. يقول لها إنه يعتذر. تقول لا أهمية لذلك. وتقول أيضاً إن الحب يمكن أن يولد بهذه الطريقة، بالإصغاء إلى كلام عن إنسان مجهول وكيف كانت عيناه.

تقول:

- أبداً على العكس تماماً. بل لا مجال للشك في ذلك؟

- أبداً.

- وكيف يمكن التحقق من هذه الحالة؟

- ولماذا نريد أن نكون متحققين من هذه الحالة؟

تنظر إليه وكأنها تتأمل صورته في غيابه. تقول:

- لأن المرء ليس بوسعه أن يفعل خلاف ذلك.

تحدق فيه ثانية بتركيز. تقول:

- لا يمكن للمرء أن يفهم ذلك.

تسأله لماذا يمضي الآن بحثاً عن مكان آخر غير هذا، حيث وجد منذ برهة وجيزة وهو متأكد أنه سيبقى فيه حتى موته. لا يعرف السبب تماماً. يحاول القول.

- ربما لكتابة قصة. ولهذا لا يمكن للمرء أن يفعل شيئاً آخر، حتى ولو من دون ثمن.

- حقاً، نحن ننسى دائماً. إنها حكاية من مثل: كتابة قصة، وفي مركزها، هذا التباين الذي يصنع الكتاب.

يمر وقت طويل قبل أن تتحدث ثانية. هي في مكان آخر، منذ وقت طويل، وحيدة، من دونه، وهو يعرف ذلك. تردد:

- هكذا. ليس لديك أية رغبة بامرأة.

- أبداً، ولكنني يمكن أن أفهم إمكانية وجود هذه الرغبة لدى المرء - يبتسم -، ويمكن أن يخدع نفسه.

يحدث انفعال، لا نستطيع أن نعرف ماهيته بشكل جيد، فيما إذا كان ذلك هو الخوف الذي يراودها ثانية، وهذه المرة، أكثر قوة منها، أو أنه التعبير عن الانتظار الذي تجهل أنها تعيشه الآن. تتأمل الغرفة. وتقول:

- يا للغرابة، وكأنني قدمت من مكان ما. وكأنني كنت أنتظر دائماً!

يسألها عن سبب موافقتها على العودة إلى الغرفة. تقول إن كل النساء ربما سيوافقن من دون معرفة سبب لهذا الاتحاد الطاهر واليائس. وأنها مثل أولئك النساء، لا تعرف سبباً. وتسأل: وهل هو يفهم شيئاً ما؟

يقول إنه لم يحلم بامرأة قط، وإنه لم يفكر أبداً بامرأة كشيء يمكن أن يحبه.

تقول:

- هذا شيء مرعب. ليس بوسعي تصديق ذلك قبل اللقاء بك. يسأل إن كان الأمر مرعباً مثله مثل عدم الإيمان بالله.

تعتقد بذلك. إنه واقع الإنسان الحاضر بنوع لامحدود في حقيقة ذاته التي تخيفه. لكن ما يجب أن يكون هنا هو الأفضل، والأكثر حرية للمرء كي يعيش اليأس مع هؤلاء الرجال الذين لا مستقبل لهم والذين يجهلون أنهم يائسون.

يسألها إن هي ترغب في مغادرة البيت. تبتسم له. تقول لا، لأن المحاضرات لم تستأنف في الجامعة بعد، ولديها متسع من الوقت للبقاء هنا. تقول له أشكرك، ومن ثم، فأنا لا أبالي بالنقود.

تقترب، وتأخذ الشراشف، وتحملها إلى الجزء المعتم من الغرفة. تلتّف في داخلها بالكامل وتضطجع هناك، جانب الحائط، على الأرض، وقد هدّها التعب تماماً.

يتأملها باهتمام وهي تؤدي الحركات ذاتها، الخطأ نفسه. يدعها تنخدع، ومن ثم، حينما تنام، فإنه يحدثها عن ذلك فيما بعد.

يمضي إليها، يمدّ الشراشف، ويجدها دافئة في الداخل، مغرية للنوم. وحينذاك فقط يقول لها إنه ينبغي أن تأتي إلى الضوء في منتصف الغرفة. ربما تعتقد أن ما يريده، بادئ ذي بدء، هو أن تنخدع. من أجل أن تذكّره بما يجب أن تفعله فيما بعد.

تستيقظ. تنظر إليه وتسأل: من تكون أنت؟ يقول: تذكري!

تتذكر. تقول: أنت هذا الذي كان يحتضر في المقهى على شاطئ البحر. يقول لها ثانية إنها يجب أن تذهب إلى تحت الضوء من جديد. وهذا ما كان متفقاً عليه. تبقى حائرة، وهي تعتقد أنه كان من الأفضل له أن يعرفها هنا وحسب، من دون أن يكون ملزماً برؤيتها. لم يجب. تفعل ذلك، وتمضي إلى تحت الضوء.

ومع ذلك ستمضي مرات عديدة فيما بعد وتنام جنب الحائط، ملتفة بالشراشف، وفي كل مرّة يقوم بإعادتها إلى تحت الضوء في منتصف الغرفة. تتركه يعيدها. تفعل ما يقول، وتخرج من الشراشف وتضطجع تحت الضوء.

لن يعرف أبداً إن هي تنسى حقاً، أم أنها مقاومة تواجهه بها، للحد من تصرفه في الأيام القادمة التي لا يعرفان بعد ما الذي سيصبحان عليه.

في الغالب هي ستستيقظ حائرة، قلقة، وما تسأل عنه في كل مرة، هو أي بيت هذا؟ أما هو، فلا يرد على السؤال. يقول إنه الليل، وقبل الشتاء، إنه الخريف.

تسأل: ماذا تسمع؟

يقول: البحر، هناك، وراء جدار الغرفة. أما أنا فهو ذلك الذي من وجدته أنت ذات مساء من هذا الصيف في هذا المقهى على شاطئ البحر. ومن ثم هو ذلك الذي أعطى النقود.

تعرف ذلك، لكنها تتذكر بشكل مشوش لماذا هي هنا.

تحدق فيه، وتقول: أنت هو ذاك الذي كنت تعاني من اليأس. ألا ترى أن المرء يتذكر بشكل مشوش؟ وفجأة يرى أنه يتذكر بشكل مشوش أيضاً، وبالكاد يتذكر، حتى وإن أراد ذلك. حقاً لماذا يعيش في حالة يأس؟ يكتشفان نفسيهما فجأة، يتأمل كل منهما الآخر. وفجأة تلتقي نظراتهما، ويحتضنان بعضهما بعضاً حتى يتعطل الكلام على الصفحة، إلى أن تحدث تلك الالتماعة في العينين اللتين تهربان وتغمضان.

تريد هي أن تفهم كيف كان يحب هذا العاشق التائه. يقول: إنه لا طاقة له بهذا الأمر، وخارج إرادته. ومع هذا تريد أن تفهم مرة أخرى. فيكرر القول.

تغطي وجهها ثانية بالحرير الأسود. يتمدد قريباً منها. لم يتلامس جسداهما، وقد حل سكون مشترك. تردد له بصوته مقلدة: لا طاقة له بهذا الأمر، وخارج إرادته.

يحدث ذلك بخشونة وبالصوت نفسه، وبالتباطؤ ذاته. يقول:

- لقد شاهدني، وكشف عن حضوري خلف نافذة الصالة، وكان ينظر إليّ مرات عديدة.

وهي تجلس تحت الضوء الأصفر، وعيناها مصوبتان عليه، تصغي، وهي لا تعرف عما يتحدث، إطلاقاً. يستمر:

- لقد التحق بامرأة، وهذه المرأة أشارت إليه بيدها، أن يتبعها. وعند ذاك أدركت أنه لا يريد مغادرة الصالة. أمسكت بذراعه وقادته. ليس بإمكان رجل ما أن يفعل ذلك أبداً.

لقد تغير الصوت، واختفى تمهله، ولم يعد الرجل نفسه هو الذي يتكلم. يصرخ. يقول لها إنه لا يحتمل تحديقها به كما تفعل. لم تعد تحدق فيه. يصرخ، لا يريد منها أن تتمدد، يريدها أن تبقى واقفة. وهي لن تخرج إلاّ بعد أن تسمع القصة. فيستمر بسرد القصة.

بالنسبة إليه، فإنه لم ير وجه هذه المرأة التي لحق بها. فلقد كانت ملتفتة نحو الشاب الغريب، وهي لم تكن تعرف على الإطلاق أن شخصاً ما كان هناك يراقبها. كانت ترتدي فستاناً فاتحاً، نعم هكذا كان، أبيض.

يسألها إن كانت تسمع. إنها تسمع، فليهدئ من روعه.

يستمر بسرد القصة:

- لقد دعته بحق لأنه كان يحدق بي بهذا الشكل الملح، كان عليها أن تصرخ لكي تتمكن من صرف النظر عني. وفجأة افترقنا. لقد اختفيا من خلال باب الصالة الذي يطل على الشاطئ.

يمتنع عن البكاء. يبكي.

يقول:

- ذهبت إلى الشاطئ أبحث عنه. لم أعد أعرف ما كان علي أن أفعله. ثم عدت إلى المتنزه، وانتظرت حتى هبوط الليل. رحلت عندما انطفأ نور الصالة. لقد ذهبت إلى ذلك المقهى على شاطئ البحر. وكالعادة كانت قصصنا قصيرة، لم أعرف ذلك البتة. الصورة هنا - ويشير إلى رأسه، وقلبه - راسخة. لقد انزويت معك في هذا البيت كي لا أنساه. والآن ها أنت قد عرفت الحقيقة.

تقول: يا لها من حكاية، إنها مرعبة.

يتحدث عن جمالها. العينان مغمضتان، وبوسعه أن يستعيد رؤية الصورة ثانية بكمالها. يرى ثانية ضوء الغروب الأحمر وعينيها المرعبتين بالزرقة في هذا الضوء. ويرى ثانية سحنة العشاق البيضاء والشعر الأسود.

لقد صرخ شخص ما للحظة، ولكن بعد حين من تلك الصرخة، لم يره ثانية. ولم يعرف إذاً أن كان هو الذي صرخ أم لا، بل لم يكن على يقين أن الذي أطلق الصرخة كان رجلاً. لقد كان منشغلاً بالتفرج على الناس المحتفلين في الصالة. وفجأة انطلقت هذه الصرخة. كلا. يجب التفكير بذلك مرة أخرى، فهذه الصرخة لم تأت من الصالة، وإنما قدمت من مسافة بعيدة جداً، وهي مثقلة بأصداء عديدة، من الماضي ومن الرغبة. وهكذا يجب أن يكون شخصاً غريباً هو من أطلق الصرخة، إنه شاب، يريد المزاح، وربما يريد إثارة الخوف. ومن ثم فإن المرأة كانت ترافقه. لقد فتش المدينة والشاطئ، فلم يعثر عليه، تماماً وكأن هذه المرأة قد اصطحبته بعيداً.

تسأله مرة أخرى: لماذا النقود؟

يقول: لأدفع، لقاء التصرف بوقتك كما قررت أنا ذلك. لكي أصرفك عندما أريد ذلك. وإنني على معرفة مسبقة أنك ستذعنين لسماع حكاياتي، تلك التي ابتدعتها وتلك التي هي محض حقيقة. تقول: كذلك من أجل النوم على الجنس الخامد. وهكذا تنهي عبارة الكتاب: ويبكي هنا أحياناً أيضاً.

يسأل لِمَ يستخدم الحرير الأسود. تقول:

- الحرير الأسود، مثل الكيس الأسود الذي يوضع فيه رأس المحكوم عليه بالموت.

يقول الممثل، يجب أن يكون الإصغاء إلى قراءة الكتاب منتظماً، فما أن تحل فترات الصمت حتى تنطلق قراءة النص، ويجب على الممثلين أن يكونوا مشدودين إليها، وفي حالة سكون، وكأنهم عبر بساطة الكلمات قد استوعبوا الكثير بشكل تدريجي تقريباً.

على الممثلين أن يحدّقوا بالرجل بطل القصة، وهم تارة يحدقون بالجمهور وطوراً يحدقون ببطلة القصة، ولكن يجب ألاّ يتم ذلك مصادفة أبداً.

ينبغي ملاحظة عدم مبالاة الممثلين ببطلة القصة. إن الأحداث التي ستقع بين الرجل والمرأة لا يمكن أن تعرض أو تمثل. قراءة الكتاب تطرح نفسها إذاً كمسرح للحكاية.

يجب ألا يؤثر أي انفعال غريب بهذه الفقرة أو تلك من القراءة، بل وأية حركة كذلك، وبخاصة الانفعال حيال إفشاء الكلام.

على الرجال أن يرتدوا الملابس البيضاء، أما المرأة فيجب أن تكون عارية. أما الفكرة التي يمكن أن تكون ذات مظهر سوداوي، فقد استبعدت.

تقول له إنها من عداد الناس الذين قصدوا الشاطئ ليلاً. يتراجع إلى الوراء بحركة خفيفة، وكأنه يعرب عن شكه بما أخبرته به. ثم يقول لها إنه يصدقها. يسأل: خارج هذه الطرق، وهذا الحب، من هي؟ خارج الطرق، وخارج حضورها في الغرفة، من تكون؟

تضع الحرير الأسود على وجهها. وتقول: إنني كاتبة. لا يعرف إن كانت تمزح. لم يسأل.

يصمتان. ويصغيان في ذات الذهول. يتساءلان من دون أن ينتظرا جواباً. يتحدثان وحدهما. ينتظر أن تتكلم هي، فهو يحب صوتها، وقد قال لها ذلك، وهو لا يصغي عندما يتكلم شخص ما، ولكن عندما تتكلم هي، نعم يصغي، يصغي إلى صوتها دائماً. إنه صوتها الذي حرضه على دعوته للمجيء إلى الغرفة.

تقول إنها ستؤلف كتاباً حول الغرفة ذات يوم، وهي ترى أن هذا المكان، وعن غير قصد، غير صالح للسكن مبدئياً، إنه مكان جهنمي، مشهد في مسرح مغلق. يقول إنه رفع الأثاث والكراسي والسرير والحاجات الشخصية، لأن الشك كان يخامره، في أنه لا يعرفه وأنه لا بد أنه نهب مرات عديدة. يقول أيضاً إن الأمر الآن على العكس، يخشى دائماً أن ترحل عندما ينام. إنها سجينة معه في هذه الغرفة ولم يبتعد عنها أبداً، عن هذا العاشق ذي العينين الزرقاوين والشعر الأسود. وهو يظن أنه في هذه الغرفة، وفي هذا الضوء المسرحي، ينبغي عليه أن يبحث عن بداية لهذا الحب، ربما تعود إلى مواسم صيف طفولته التي ارتكبت فيها خطايا كثيرة، ولكنه لم يصرح بها.

عميق هو صمت الغرفة. لم يعد يأت أي صخب من الطرقات أو من المدينة أو حتى من البحر. يأتي الليل في موعده، وفي كل مكان صفاء وظلام، وقد اختفى القمر. هما يشعران بالخوف. يصغي، وعيناه تحدقان في الأرض. مفزع هذا الصمت. يقول إن وقت هدوء البحر قد حان. لكن مياه المد الصاعد تتجمع ثانية، وإن الحركة جارية. إنها تولد بسرعة الآن وستمضي بشكل غير منظور في هذه الساعة من الليل، وإنه دائماً يشعر بالأسف لاكتشافه أن هذه الحركات كتلك التي لم تكن منظورة على الإطلاق.

تحدّق فيه وهو يتكلم، بعينين واسعتين وغائرتين. لم يرها، إذ إن عينيه تحدقان بالأرض دائماً. تطلب منه أن يغمض عينيه، وأن يتظاهر بالعمى على نحو ما وأن يتذكرها، ويتذكر وجهها.

يفعل ذلك. يغمض عينيه بقوة ولوقت طويل كما يفعل الأطفال. ثم يتوقف، ثم يقول، مرة أخرى:

- ما إن أغمضت عيني، حتى رأيت شخصاً ما آخر لم أكن أعرفه.

تهرب عيونها، تحيد عن بعضها. تقول: ها أنا أمامك وأنت لا تراني، هذا أمر مرعب. يتكلم بسرعة ليعزز الشعور بالخوف. يقول إن هذا الأمر لا بد أنه كان يتعلق بتلك الساعة من الليل، بتغير البحر، حتى أن العابرين أنفسهم توقفوا للتو، ولم يبق سواهما يصطخبان في هذا الجانب من المدينة. تقول لا، فالأمر ليس كذلك.

لايزال هناك متسع من الوقت قبل أن يتحادثا من جديد. إنها أمامه، بوجهها العاري، من دون الحرير الأسود. لم يرفع عينيه إليها. يبقيان هكذا بلا حراك، مدة طويلة. ومن ثم تتركه، وتترك الضوء، تمضي بمحاذاة الحائط.

يسألها عن العابرين على الشاطئ. تستوضح منه، وهو لا يعرف شيئاً، فهو يسكن المدينة منذ عهد قريب. تقول إن هؤلاء مجموعة من الناس الذين يتخفّون ليرتووا وينعموا من دون أن يتعارفوا أو يتحابوا، ومن دون أن يرى أحدهم الآخر تقريباً. يأتون من المدينة ومن محطات حمامات عديدة. يسأل إن كان هناك عدد من النساء. تقول نعم، وكذلك يوجد أطفال وكلاب ومجانين.

يقول:

- تمضي الشمس بمستوى البحر.

تظهر بركة شمس في أسفل حائط الغرفة، قادمة من تحت باب الدخول، وهي كبيرة بحجم الكف، ترتجف على حجر الحائط. تستمر البركة بضع ثوان تقريباً، ويكون اختفاؤها مفاجئاً. تبتعد عن الحائط بسرعتها المعهودة، التي هي سرعة الضوء. يقول:

- لقد غابت الشمس. وهذا ما حدث وانتهى مثلما يحدث في السجون.

تضع الحرير الأسود على وجهها ثانية. لم يعد يعرف شيئاً عن الوجه وعن النظرة. تبكي بكاءً متقطعاً رقيقاً. تقول: لا أهمية لذلك، إنه مجرد انفعال. في البدء يشك بالكلمة. يسأل: الانفعال؟ ثم يقول ذلك وهو يلفظها بشفتيه من دون أي استفهام ومن دون أية غاية: الانفعال.

لقد كان عليها أن تستسلم للنوم متأخرة جداً. ورغم أن الشمس كانت عالية في السماء، إلا أنها لم تنم بعد. أما هو فقد نام بدوره، نوماً عميقاً جداً، حتى أنه لم يسمعها تخرج من الغرفة. إنها لم تكن هناك أثناء يقظته.

كان يجلس على مقربة منها من دون أن يلامس الجسد، أما هي فنائمة منطرحة في الضوء. يراقب القوة عبر الرقة، ومفاصل الأعضاء. تتركه

وحيداً، وهي صامتة تماماً. إنها مستعدة في كل لحظة من لحظات الليل للبقاء في الغرفة إلى أن ترحل عنها، مطرودة.

يوقظها. يطلب منها ارتداء ملابسها والجلوس تحت الضوء كي يتأملها. تفعل ذلك، وتشرع بارتداء ملابسها في أعماق الغرفة، في ظل حائط البحر، ثم تأتي إلى تحت الضوء، تبقى واقفة أمامه هو الذي يتأملها، وهي شابة، ترتدي ملابس رياضية بيضاء. وحول الخصر وشاح أسود معقود بإهمال. وفي الشعر الأسود شريط أزرق غامق بالزرقة العجيبة ذاتها لحدقتي العينين. ثم أنها ترتدي بنطالاً قصيراً أبيض.

إنها أمامه، وهو يعرف ذلك جيداً، وهي على أهبة الاستعداد لقتله لأنه أيقظها بهذه الطريقة، وعلى أتم الاستعداد للبقاء واقفة أمامه طوال الليل. وهو لا يعرف من أين لها هذه المقدرة على تحمل كل هذا الذي بدا وكأنه مقدر من الله.

يسألها إن كانت ترتدي الملابس دائماً كما هي الآن هنا. تقول منذ أن تعرفت عليه، نعم.

- لأن هذا المظهر يعجبك، عندئذ ارتديت الألوان نفسها.

يحدّق فيها وقتاً طويلاً. تقول: لا، إنه لم يرها قبل هذا المساء على الإطلاق، في هذا المقهى على شاطئ البحر. تأسف.

تخلع ملابسها، وتتمدد في مكانها تحت الضوء. بنظرة شرسة تبكي من دون أن تعرف نظرته تقريباً. يرى أنهما يتشابهان. يقول لها ذلك. وترى هي أيضاً، مثلما يرى، أن لهما الطول ذاته، وأن عيونهما باللون الأزرق نفسه، والشعر الأسود. يبتسمان. تقول: أما في النظرة، فحزن مشهد الليل.

يرتدي ملابسه في عتمة الليل أحياناً، ويكحل عينيه، يرقص، وهو يعتقد أنه لا يوقظها في كل مرة. أحياناً يضع على نفسه شريطها الأزرق ووشاحها الأسود.

ذات ليلة، تسأله إن كان في وسعه أن يفعل ذلك بيده من دون أن يقترب منها بهذا الشكل أو ذاك، وحتى من دون أن ينظر إليها.

يقول إنه لا يستطيع، لا يستطيع أن يفعل شيئاً على هذا النحو مع امرأة. لم يستطع الوصول إلى قول الحقيقة التي جعلتها تطلب منه هذا الطلب. فلو قبل، لتجرأ على القول إنه لم يعد يريد رؤيتها، أبداً، بل وربما تجعله يرتكب إثماً، ويتوجب عليه مغادرة الغرفة، ونسيان ذلك. تقول إن الأمر على العكس من ذلك، فهي لا تستطيع نسيانه. ومادام لم يحدث شيء بينهما، فإن الذاكرة بقيت متوقدة بالذي لم يقع.

تفعل ذلك هي بالذات بيدها، وأمامه وهو ينظر إليها. وفي حالة من النشوة تستدعي ما يشبه كلمة بذيئة، صماء، بعيدة جداً، ما يشبه اسماً ربما، لا معنى له. وهو لم يفهم شيئاً. يعتقد أنها تنوء بحمل سرّ طبيعي، بلا ذاكرة، متظاهرة بالبراءة والمطاوعة من دون شواهد.

يقول:

- ليتك تمنحيني العذر، فأنا لا يمكن أن أكون إنساناً آخر، وكأن الرغبة قد امّحت وأنا أقترب منك.

تقول إنها هي أيضاً هكذا في هذه الأوقات.

يقول إنها نطقت بكلمة قبل لحظة، تشبه كلمة غريبة. تقول إنها استدعت شخصاً ما في لحظة الاستغاثة بالمتعة.

يبتسم. يقول لها:

لا أستطيع أن أطلب منك إخباري بكل شيء عنك، حتى ولو قدمت إليك النقود.

لديها هذا اللون من العينين وشعر العشاق الذي يتمناه: هذه زرقة في العينين حينما يكون الشعر بهذا السواد. وهذه البشرة البيضاء التي لم تلوحها الشمس. هناك نمش أحياناً، لكنه واضح، متنصّل بالضوء، وتنام أيضاً نوماً عميقاً وهذا النوم هو الذي يحرره من حضورها.

شكل الوجه جميل جداً، وهو يرتسم تحت الحرير الأسود.

تتحرك مرة أخرى خارج الشراشف، تتمدد وتبقى ممددة، وكأنها قد سقطت، وأنهكها هذا الاسترخاء الذي ينتج من تعب لا حدود له في بعض الأحيان.

يتجه إليها. يسألها عمّا يريحها، وأي تعب هذا. ومن دون أن ترد، وحتى من دون أن تنظر، ترفع يدها وتداعب وجهه الذي يقترب منها، وشفتيه، أطراف شفتيه، حيث تتوق إلى تقبيله. ورغم مقاومة الوجه تستمر في مداعبته، بأسنان تصطك، ووجه ناكص. ثم تسقط يدها ثانية.

يسأل إن كان هذا هو الطلب الذي طلبه منها أثناء وجوده قريباً منها في كل ليلة تستدعيه فيها عند النوم. تتردد وتقول، ربما، نعم، هكذا كان عليها أن تفهم الأمر. بمعنى أنه يريد جعلها قريباً منه، ولكنها متسترة بالنوم، ووجهها مغطى بالحرير الأسود، وكأن ذلك جراء شعور آخر.

هي في الظل، مبتعدة عن الضوء، أما الثريا التي تلفها ظلمة فلا تضيء سوى مكان الأجساد. يسبب نور الثريا ظلالاً متباينة. زرقة العيون وبياض

الشراشف، وزرقة الشريط وشحوب البشرة، كل ذلك يلفه ظل الغرفة. إنه ظل مستخلص من خضرة نباتات أعماق البحار. وهي هنا، ممتزجة مع الألوان والظل، حزينة نتيجة ألم لا تعرف كنهه دائماً. لقد ولدت هكذا، مع هذه الزرقة في عينيها، وهذا الجمال.

تقول إن هذا هو ما يناسبه بالفعل، أن يحيا ما تعيشه هي معه في هذه اللحظة. وتتساءل من عساه يكون بديلها لو لم يلتقيا في هذا المقهى. وهنا، في هذه الغرفة، أمضت صيفها الحقيقي، وتجربتها، تجربة مقت جنسها، وجسدها، وحياتها. يصغي إليها بحذر. تبتسم له. تسأله إن هو يريد منها الاستمرار بالحديث إليه. يقول إنها لا تملك شيئاً تريد أن تخبره عنه، وكل ما في وسعها قوله هو مجرد أفكار معروفة. تقول:

- لا أحدثك عن نفسك، إنما أنا أتكلم عن نفسي أمامك. فالتعقيد، ينبع مني، ولهذا فإن مقتك لي، لا يعنيني. إنه يأتي من الله، وينبغي القبول به كما هو، وأن نحترمه كالطبيعة، والبحر، وليس هنالك من صعوبة لترجمته في لغتك الشخصية.

تلاحظ الغضب المكبوت في الفم المزموم، وفي العينين. تضحك. تسكت. ينبعث الخوف في الغرفة أحياناً، ولكنه في هذه الليلة كثير. ليس الخوف من الموت، إنما الخوف من أن تكون تالفاً، وكأن ذلك ناتج عن حيوان، له طبيعة خادشة ومشوهّة.

ينبغي أن تكون الصالة معتمة، كما يقول الممثل، وأن تبدأ المسرحية من دون توقف بكل عبارة، وكل كلمة.

ليس بالضرورة أن يكون الممثلون من ممثلي المسرح. عليهم أن يقرأوا الكتاب دائماً بصوت عال وواضح، وأن يمتنعوا بكل قواهم البريئة عن كل استذكار لما قرئ عن ظهر قلب، بيقين ينم عن عدم معرفة أي شيء من ذلك. وهكذا في كل مساء.

على بطلي القصة أن يحتلا المكان الوسطي من المشهد، قرب الحافة، ويجب أن يكون الضوء متذبذباً دائماً، ما عدا هذه البقعة من المكان الذي يقف فيها البطلان، والذي يجب أن يكون الضوء فيها عنيفاً ومعتدلاً، بينما تدور حولهما الأشكال التي ترتدي البياض.

لم يدعها تخلد إلى النوم. إنها في البيت، مسجونة معه في بيته. وما أن تنام تراوده هذه الفكرة أحياناً.

لقد كانت معتادة في السابق أن ترى كيف يمنع نفسه من الصراخ. تقول:

- إذا أردت، فبوسعي الرحيل، والعودة فيما بعد، أو بشكل نهائي. وهذا اتفاقي: البقاء هنا أو الرحيل، سيّان.

تنهض، وتطوي الشراشف. يبكي. لم تتوقف شهقاته، إنهما مخلصان. وللخروج من المأزق الكبير الذي أوقعته فيه، تضمه إلى الحائط. يبكيان. تقول:

- أنت لا تعرف ماذا تريد.

تتأمله وهو يعيش هذا الارتباك المدمّر الذي أصابه مثل طفل. تقترب منه تماماً وكأنها تشاطره معاناته، يتعرف عليها بصعوبة على حين غرة. تقول:

- أشتاقك كثيراً هذا اليوم، إنها المرة الأولى.

تقول له أن يأتي. تعال. تقول إنه مخمل، نشوة، ولكن أيضاً، يجب عدم تصديق ذلك، إنه صحراء أو أي شيء ضار يحرض على ارتكاب الجريمة والجنون أيضاً. تطلب منه أن يدنو ويرى ذلك بأم عينه. إنه لشيء عفن، ومجرم، ماء عكر، قذر، دم، ويجب أن يفعل ذلك يوماً، ولو لمرة واحدة، عليه أن ينبش في هذا المكان العام. فليس بوسعه أن ينجو من ذلك طوال حياته، الآن أو فيما بعد. ما الفرق؟

يبكي. تذهب إلى الحائط مرة أخرى.

تتركه لنفسه. تضع الحرير الأسود، ومن خلاله تنظر إليه.

ينتظر أن تنام، ومن ثم يفعل ذلك في الغالب، يمضي إلى الجزء المغلق من البيت، ويعود وبصحبته مرآة، يمضي إلى الضوء الأصفر، وينظر إلى نفسه. يقطب وجهه مرات، ثم يضطجع. ينام في الحال، ورأسه ملتفت نحو الخارج، من دون أن يتحرك إطلاقاً خشية أن تقترب ثانية منه. لقد نسي كل شيء.

وباستثناء هذه النظرة المهيمنة منذ بضعة أيام، لم يعد أحد يعرف أو يفهم أي شيء سوى حركات البحر، وما يتعلق بالعابرين في الليل، والبكاء.

يناملن، يدير كل منهما ظهره للآخر.

وكالعادة، فهي من تغط في نوم عميق بداية. ينظر إليها تبتعد، وهي تمضي في نسيان الغرفة، ونسيانه، ونسيان الحكاية، كل الحكاية.

في تلك الليلة، تنادي ثانية، بهذه الكلمة دائماً، المؤثرة، الجريحة والتي تريد القول إن أحداً لا يعرف أي شيء، والتي قد تعني اسماً ما، اسم شخص لم تكلمه أبداً، اسماً مثل صوت كئيب، سريع العطب في آن، صوت ما يشبه النواح.

في هذه الليلة وفي وقت متأخر، قبيل الصبح، وبينما يتخيل أنها نائمة، يحدثها أيضاً عمّا جرى في تلك الليلة.

يقول:

- قررت أن أقول لك ذلك وكأنك أنت المسؤولة عن الشيء الداخلي الذي يتواجد في أعماقك، والذي تجهلينه، والذي يرعبني لأنه يحل ويتحول في ذاته من دون أن ينم عن أي أثر يدل على ذلك.

لم تكن نائمة.

تقول:

- حقاً إنني مسؤولة عن هذه الحالة الكوكبية التي تخص جنسي ذا الإيقاع القمري والدامي. فها أنذا أمامك وكأنني أمام البحر.

يقتربان من بعضهما، ويصبحا على وشك أن يتماسا، ثم يعودان إلى الاستغراق في النوم.

قبل هذه الليلة، من بين ليال أخرى، لم تره، ولم تسمح لنفسها بمقابلته. تقول له:

- إنني أراك للمرة الأولى.

لم يفهم، ويحترس في الحال. أما هي، فتفضله هكذا. تقول له إنه جميل لدرجة أن لا أحد جميل سواه في الكون، بين الحيوانات أو النباتات، ومكانه ليس هنا، ويجب ألاّ يكون طارئاً في مجرى الحياة. وإنها ترغب أن تقبل عينيه وجسده ويديه. فتهدهد طفولتها إلى حد الاستسلام له. تقول:

- سأكتب في الكتاب، إن الشعر أسود، والعينين بلون حزن المشهد الليلي.

تحدق فيه.

تسأله عمّا حدث له.

لم يفهم السؤال، وهذا ما يجعلها تضحك. تتركه هكذا في ما يشبه القلق ثم تقبله فيبكي. وعندما ينظر المرء إليه بإمعان، يبكي. وهي تبكي لمرآه.

يكتشف أنه يجهل كل شيء عنها، لا يعرف اسمها وعنوانها وما تفعله في هذه المدينة التي وجدته فيها. تقول: إن الوقت متأخر للغاية الآن لإطلاعه، إطلاعه أو عدم إطلاعه سيّان. تقول:

- مثلك أنا بعد الآن، في لحظة الخروج من عذاب طويل غامض لا أعرف مبعثه.

تحت الضوء الأصفر، كان الوجه عارياً.

تتكلم عن الشيء الداخلي، وفي داخل هذا الشيء الداخلي تتهيج حرارة الدم. ربما بالإمكان القيام بشيء ما وكأن ذلك كان مكاناً مختلفاً، وهمياً فينزلق فيه، بهدوء، ينزلق فيه حتى تخمد حرارة الدم، ويبقى هناك، ينتظر، ولا شيء آخر، إنه ينتظر الآتي.

تردد: يأتي مرة كي يرى أن ما يحدث الآن أو فيما بعد، لا يمكن تجنبه.

يسمع، ربما تبكي. يحتملها على مضض وهي تبكي، يتركها.

تضع الحرير الأسود على وجهها ثانية.

تصمت.

وعندما لم تعد تطلب منه أبداً أن يتجه نحو ما هو مكشوف منها، وسعت بين ساقيها كي يأخذ مكاناً في قعرهما.

ـ إنه في قعر الساقين المتباعدتين.

يضع رأسه فوق الشق الذي ينغلق على الشيء الداخلي.

إنه الوجه إلى جانب التمثال، وكانت شفتاه رطبتان إلى حد ما. ومن خلال الانقياد الذي يثير تدفق الدموع، يتوقف هناك مدة طويلة، وقد أغمض عينيه، على سطح الشق الكريه. تقول له إنه حبيبها الحقيقي، بسبب هذا الشيء الذي أخبرها عنه، وأنه لم يكن يريد شيئاً البتة حتى وإن كان فمه قريباً جداً، ولا مناص من أن يفعل ذلك، بالفم، كما تريد هي. إنها تحب من يثير في أعماقها البهجة، فتصرخ به أنها تحبه، أن يفعل ذلك، فهو بالنسبة إليها أيّ إنسان مثلما هي بالنسبة إليه.

تصرخ ثانية عندما يشيح بوجهه.

لم تعد تصرخ.

يحتمي بالحائط قرب الباب. يقول:

- علي أن أستسلم. لا فائدة. لا أستطيع أبداً.

تضطجع ووجهها نحو الأرض. تصرخ غضباً، وتضرب الأرض. ثم تهدأ وتكف عن الصراخ، تبكي، ثم تنام. يقترب منها، يوقظها، ويطلب منها أن تتكلم بما تؤمن به. تعتقد أن الوقت كان متأخراً للغاية لكي ينفصل كل منهما عن الآخر.

تدير ظهرها، ويمضي هو نحو الحائط ثانية. تقول:

- ربما يعيش الحب هكذا بطريقة بشعة.

تنام تحت الحرير الأسود حتى وضح النهار.

في اليوم التالي تذهب إلى الحائط. وتظل طوال الليل نائمة. لا يوقظها، ولا يكلمها. ترحل مع طلوع النهار. الشراشف مطوية، والضوء كان مؤتلقاً. ينام، ولا يشعر بها ترحل.

يبقى في الغرفة، ويداهمه الخوف، فجأة، من فكرة الرحيل.

يثير زوبعة، ويبقى هناك. لم يطفئ الثريا، ويبقى في الضوء.

في مساء هذا اليوم، لم تأت، مع أن ساعة وصولها قد أزفت، وهو لم ينم. إنه ينتظرها كي يقتلها. يتخيل ذلك، سيقتلها بيديه.

تصل في منتصف الليل، متأخرة، والفجر على وشك أن ينبلج. تقول إن تأخرها كان بسبب العاصفة. تمضي نحو حائط البحر، دائماً في هذا المكان نفسه. تحسب، من دون شك، أنه لم ينم.

ترمي ملابسها على الأرض، كما تفعل ذلك عادة، ودائماً في عجلة من أمرها تمضي إلى النوم، فتلتف بالشراشف، وتستدير نحو الحائط. وفي برهة قصيرة تغرق في النوم.

وبينما هي نائمة يحدثها. يقول لها إنها ستطرد قبيل نهاية الإقامة التي كانت مفترضة. وعلى ما يبدو إنها لم تسمعه، إنها لم تعد تسمع شيئاً.

يبكي.

لا يبكي إلّا وهي هنا، في هذا المكان، الذي هو مكانه وحده والذي هاجمته فيه. لا يبكي إلّا في هذه الحالة، التي تكون فيها هنا بينما يريد هو ألاّ تكون هنا إلّا حينما يأمر بذلك. بسرعة صار البكاء من دون سبب، بما في ذلك النوم. يبكي مثلها، وهي تنام. إنها تبكي في الليل أحياناً، بلا صوت.

وعندما نامت، وهي ملتفة بالشراشف، فإن الرغبة التي يشبعها من خدمة هذه المرأة، تحصل من الذهاب لرؤية ما في الجوف الحار من جراء الدم، والاستمتاع بمتعة غريبة، شائنة. ولكن كان عليه ليفعل ذلك أن تكون هي ميتة، أما هو فقد نسي أنه كان عليه أن يقتلها.

يقول لها إنها كانت تكذب فيما يتعلق بمبررات تأخرها. ودائماً هذه الكلمة على شفتيه: الكذب. والدليل أنها تنام. يستطيع أن يتكلم حقاً. إنها تنام، وهي تكذب ككل النساء اللواتي يكذبن، وتنام.

يصرخ: غداً ستترك الغرفة إلى الأبد. يريد أن يكون هادئاً. لديه شيء آخر يقوم به مثل الشرطي عندما يكون في بيته الخاص. سيغلق الباب، ولن يكون بإمكانها أن تدخل.

سيطفئ الأنوار كي تظن أن المكان مهجور. وسيقول لها: لم يعد هناك داع للمجيء، أبداً.

يغمض عينيه، ويحاول أن يسمع، ويرى: الغرفة مظلمة، ولم يتسلل من تحت الباب أي قبس من ضوء. تطرق رأسها، ولا يرد، وعندئذ تصرخ كي يفتح. هي لا تعرف اسمه. تسأل أن يفتح لها الباب. هذه أنا، افتح. يتخيلها وحيدة في المدينة أو بين الناس على الطرقات، وكان أن فعل ذلك من قبل، فقد تخيلها عندما تأتي على سبيل المثال في وقت الظلام، ولكنه لم يكن بوسعه أن يتصورها أمام الباب المغلق. أما هي فتستدرك الأمر في الحال، وهي هكذا، تفهم على الفور، أنها خدعة. عليها، من دون شك، أن تفهم ذلك لمجرد أنها ترى أن الضوء لم يعد له وجود.

يرتكب خطأً. يبدأ ثانية: كلا، لن تصرخ، وستمضي من غير أن تطرق الباب، ولن تعود. علامة القتل، والرحيل الأبدي، الذهاب الأبدي، هو كل ما تقوم به. وعندما يتأملها نائمة، يعرف ذلك من فوره: إنها الشخص الذي لن يكرر المجيء ثانية، وذلك لأنها الشخصية التي تصدق ما يحكي لها. بعد ذلك، تنام، وتصدق ذلك.

ينام وقتاً طويلاً، ويستيقظ في وقت متأخر من الصباح. وفي وضح النهار يمكن أن يرى المرء رغوته تتسلل من فتحات الباب، وهي تلمع كلمعان الفولاذ.

ولم تعد هي هناك موجودة في الغرفة.

يصل الغثيان المقرف حتى رأسه فجأة، ولكنه غثيان من نوع خاص، شخصي، إنها التعاسة، وهو من ارتكب ذلك. يتعلم من ذلك الاقتصاد والمادة.

يطفئ ضوء الثريا الأصفر، ويستلقي على أرضية الغرفة. ينام عدة مرات، ثم يستيقظ. لن يذهب ويأكل في مطبخ البيت المغلق، ولن يفتح الباب. يبقى في الغرفة. إنه يحرس الغرفة، العزلة.

وعندما تدنو ساعة وصولها، يقرر أن عليها أن ترحل ولكن بمفردها، وعليها بالذات أن تفهم عند وصولها، أنه لن يطلب منها شيئاً على الإطلاق.

كان يود أن يتحدث مع شخص ما، ولكن ما من أحد، فهي غير موجودة هنا كي يتحدث معها.

المعاناة واضحة، وتنتشر في الغرفة، توجع الرأس، وتشل اليدين. إن المعاناة تسلب القوة، وتخفف من العزلة. تتركه هنا، ينهشه التفكير في أنه ربما يموت الآن.

كانت قد طوت الشراشف جانب الحائط، ووضعتها على الأرض بعناية وكأنها تعدّ له دعوة. يمضي نحو الشراشف المطوية، فيفرشها ويتغطى بها: لقد داهمه البرد على حين غرة.

في المساء تطرق الباب الذي بقي مفتوحاً.

ليس في الإمكان أن نعرف، كما يقول الممثل، فيما يتعلق بأبطال القصة، وما هي بواعثهم.

ولكي تبذل جهداً لرؤيتهم، ما عليك سوى أن تتركهم لأنفسهم وقد غرقوا في الصمت لحظة طويلة: وحولهم يتحلق الممثلون وقوفاً، بلا أصوات، وهم، في الضوء، يثير هذا الصمت دهشتهم.

تنام في الغالب، أما هو فيطيل النظر إليها. تتلامس أكفهما أحياناً أثناء حركات النوم، ولكنها تتباعد في الحال.

سيعميهما الضوء الباهر، وسيكونان عاريين، مكشوفين جسدياً، هما مخلوقان بلا هدف.

لم يحدث شيء، خلال الليالي التي تلت، سوى النوم. الأمر الذي يحيل إلى نسيان مؤكد لأحداث الصيف.

تتقارب الأجساد وتتلامس، أحياناً، في هذه التسلية، فتولد ما يشبه اليقظة، ولكن سرعان ما يغشاها النوم ثانية. ومنذ ذلك الوقت الذي حدث فيه أن تلامسا، لم يعد جسداهما يتحركان. وقد بقيا هكذا إلى أن استدار أحدهما ثم ابتعد. ولكن لم يحدث أيّ شيء بوضوح. فما من نظرة، وما من كلام أبداً.

يتكلمان أحياناً، وما يتحدثان به لا علاقة له البتة بما يحدث في الغرفة، وباستثناء هذا الذي في الغرفة، فإنهما لم يتحدثا بأي شيء.

تدير ظهرها أحياناً، تقاوم تهديداً خارجياً، صرخة حيوان، ريحاً تضرب الباب، فمه المخضب، عذوبة نظرته. تعود إلى النوم دائماً. وقبيل الفجر، عليها أن تلتحق بأكثر المضاجع عمقاً وهجراً. ولكن لم يتبق سوى النفس أحياناً، حتى ليذهب المرء إلى الاعتقاد أن حيواناً ينام إلى جوارها.

في الصباح، بالكاد يسمعها ترحل. لم يتحرك، ويمكن أن يعتقد المرء أنه غارق في لجة غياب الصباح المرهق ذاته. أما هي، فتتصرف وكأنه كان نائماً حقاً.

يمكن القول إن ما حدث في بعض الأحيان، لم يكن سوى هذه الأكذوبة.

يأتي الليل، وهي هناك في الساعة المحددة، بجسدها المرصوص على الشراشف البيضاء، مكشوفة تحت ضوء الثريا.

تتظاهر بالموت، ووجهها ملغى تحت الحرير الأسود. وهذا ما يفكر فيه في الأيام العصيبة.

لا يزال الليل من دون شك مهيمناً، ولم ينبعث أيّ ضوء في الخارج بعد. وحول الشراشف البيضاء يتمشى الرجل ويدور.

لقد وصل البحر إلى أمام الغرفة. يجب ألاّ يكون المرء بعيداً عن الصباح. هذا هو البحر المثير للأرق، وهو هنا، قريب جداً من الجدران، بضجيجه الواضح، وسرعته البطيئة، وهو الذي يحرض على الموت.

فتحت عينيها.

لم يحدق أحدهما في الآخر.

ويستمر هذا لليال عديدة.

ليس هنالك أيّ دليل خارجي يساعد على القول إنهما على قيد الحياة. وما من حل لتجنب المعاناة.

تنام.

يبكي.

يبكي على صورة بعيدة من ليلة صيف، كان بحاجة إليها، وإلى حضورها في الغرفة من أجل البكاء على الشاب الغريب ذي العينين الزرقاوين والشعر الأسود.

بدونها ربما تظل الصور في الغرفة عقيمة، فتجفف قلبه ورغبته.

الجسد، لم يكن قد رآه، باستثناء أنه رآه وهو يرتدي الملابس البيضاء والقميص الأبيض.

إنه شاحب، لقد كان شاحباً. كان قد قدم من الشمال، من بلاد غامضة.

طويل.

الصوت، لا يعرف.

لم يعد يتحرك. يقطع المسافة ثانية من متنزه الفندق حتى نافذة الصالة.

يصغي، بعينين مغمضتين. يسمع الصرخة، ولكنه لم يلتقط أية كلمة أثناء ذلك، ولم يفهم أيّ معنى، وعندما يفتح عينيه يجد الأمر متأخراً للغاية، فالجسد الذي يمتلك عينين زرقاوين يتقدم نحو النافذة المفتوحة بصمت.

لم يحدثها عنه. لم تخطر بباله تلك الفكرة. لم يتحدث عن حياته، ولم تراوده فكرة كان يمكن له أن ينفذها. ليس هناك من كلمات أو عبارات يحشوها بالكلمات. يمكن القول إن ما يحدث هو الصمت أو الضحك أو أنه يبكي معها في بعض الأحيان، على سبيل المثال إنه يبكي معها.

تحدق فيه. هكذا تراه في غيابه، وهو على هذه الحال هنا. ممتلئ بصورة صامتة، ثمل بأنواع العذابات، وبتوق إلى العثور ثانية على شيء مفقود، وكأنه يبتاع شيئاً لم يمتلكه، يصبح فجأة سبباً لوجوده، هذا الثوب، وهذه الساعة، وهذا العاشق وهذه السيارة. أينما يكون، وأي شيء يفعل، فدائماً ما تطاله النكبة وحده.

بوسعها أن تحدق فيه وقتاً طويلاً، قد يصل الأمر إلى ليال عديدة. يلمح أن عينيها مفتوحتان. يبتسم لها وكأنه كان قد أزاح القناع عن وجهه إلى حد ما. إنه يأسف، ودائماً من خلال هذا التبرير الذي لا نهاية له، يرى أن لا مندوحة عنه.

تتكلم كي ترضيه.

تقول إنها تسكن في المدينة خلال الصيف، وإنها تعيش ليس بعيداً من هنا، في مدينة جامعية، المدينة التي ولدت فيها. إنها فتاة قروية.

تحب البحر حباً جماً، وهذا الشاطئ على وجه الخصوص. وهنا، لا تملك بيتاً، بل تسكن فندقاً. وهي تفضل ذلك، في الصيف، وهو الأفضل بالنسبة إلى النفقات، ووجبات الإفطار، والعشاق.

يشرع بالإصغاء. هذا رجل يصغي لكل ما يروى له بشغف، ولا يمكن لأحد أن يفهم لماذا. عند هذا الحد، يسأل إن كان لها أصدقاء هنا أو في المدينة

التي تعيش فيها خلال الشتاء. هل هم أصدقاء دائمون؟ هناك بعض من هؤلاء الذين هو أحدهم، ولكن بالتأكيد هم أناس تعرفت عليهم في الجامعة على وجه الخصوص. ألأنها في الجامعة؟ نعم. تدرس العلوم، وهي أيضاً أستاذة منتدبة في العلوم. نعم هي تروي له. يقول إنه فهم أنها تحضر للدراساتِ العليا. تضحك، ويضحك، وهو مرتبك لأنه أدرك إلى أيّ مدى كان تواطؤه كبيراً. ثم، وعلى حين غرة، يرى أنها لم تعد تضحك، فتتركه وتحدق فيه وكأنه كان مثار إعجاب، أو كان ميتاً. وحينما تعود، يبقى وجوده في نظرها مثل بريق من التيه الذي اجتازته للتو.

لم يتكلما عن هذا الخوف. وهي تعرف بشكل أقل مما يعرف أن شيئاً ما قد حدث. يبقيان بعيدين عن بعضهما لمدة طويلة، وهما يحاولان أن يفهما ما يجري عندما تبادلا النظرات، هذا الرعب الذي مازالا لا يعرفان عنه شيئاً.

حقاً إنه يحب فكرة الجنون هذه انطلاقاً من رغبتها في السكن في الغرفة وقبولها المال. وهو يعرف أنها ثرية، ويعرف كيف يتبين هذا الأمر. يقول لها، لو أنه أحبها، لربما كان ذلك بسبب ثروتها وجنونها على وجه الخصوص.

وذات ليلة تكشف، وهي ترد على كل هذه الأقاويل، عن آثار دقيقة لشفرات حلاقة على معصميها. لم يتحدث عن ذلك مطلقاً. تبكي من دون أن توقظه.

في اليوم التالي، لم تأت إلى الغرفة. لم تعد إلاّ غداة اليوم الثاني، لم يتحدثا بشيء عن هذا الغياب، وهو لم يطرح عليها الأسئلة. وهي لم تتكلم بشيء.

ستعود إلى الغرفة كما كانت تفعل ذلك على عادتها قبل الكشف عن الآثار على الذراعين.

لقد ابتعد صخب البحر، والمرء ما يزال بعيداً عن النهار.

تستيقظ، وتسأله إن كان الوقت ما يزال ليلاً. يقول نعم، إنه ما يزال هكذا. تتطلع إلى هذا الرجل الذي ينام مشوشاً مدة طويلة، فهي تعرفه. تقول: أنا أيضاً نمت كثيراً.

تقول إن هو يريد ذلك، بوسعه أن يكلمها عندما تنام، وبوسعه أن يوقظها إن كانت لديه رغبة في ذلك لكي تصغي إلى ما يقول. لم تعد متعبة مثلما كانت في مثل هذا الوقت في المقهى على شاطئ البحر. وإن أراد أيضاً، بوسعه أن يقبّل عينيها ويديها مثل تلك المرة في هذا المقهى بينما هي نائمة. وعندما تنام ثانية، سيفعل ذلك، في آخر الليل.

سينساب الحرير الأسود، وسيصبح وجهها عارياً تحت الضوء، سيلامس شفتيها، وجسدها بأصابعه، وسيقبل العينين المغمضتين، والزرقة التي تهرب تحت الأصابع، سيلامس أيضاً أجزاءً محدودة نتنة ومحرمة من جسدها، وحينما تستيقظ، سيخبرها:

- لقد قبّلتُ عينيك.

تعاود النوم ثانية، وتضع الحرير الأسود على وجهها. أما هو فسيتمدد جانب الحائط بانتظار النوم. ستردد العبارة التي قالها ولكن بعذوبتها وبنبرتها: لقد قبّلتُ عينيك.

تنهض في منتصف الليل وكأنها مذعورة، تقول ذات يوم سيكون رقم الليالي المتوقعة قد ازداد وأنهما لا يعرفان ذلك. لم يسمع. وعندما تنام، لا يسمع. تتمدد مرة أخرى، وكان عليها أن تقلق بسبب عودتها إلى النوم، تتطلع إليه، وتتأمله، بلانهاية، فتكلمه وتبكي، لأنها تدرك أن ما تقوله له هو الحب.

يمشي في الغرفة، حول الشراشف البيضاء، وعلى امتداد الحائط يطلب منها ألاّ تنام، وأن تبقى مكشوفة الجسد، ومن دون الحرير الأسود. إنه يمشي حول الجسد.

أحياناً يضع جبهته على الحائط البارد، فهناك يلتطم البحر بشدة.

تسأل عن الذي يسمعه عبر الحائط. يقول:

- كل شيء، إضافة إلى الصراخ، والضربات، والقهقهات، والأصوات.

يسمع أيضاً موسيقى نورما. تنطلق بالضحك. يتوقف عن المشي، ويحدق فيها وهي تضحك. لقد أثار هذا الضحك إعجابه، فيقترب منها ويبقى هناك محدقاً فيها وهي تضحك، ولكنه مجرد ضحك، ضحك، يغرق كل قصتهما في جنون من الضحك.

تسأله: ولكن من الذي يغني نورما؟ يقول إنها كالاس، التي لا يوجد سواها من يغني بيلليني. تسأله: ولكن في أيّ محل تغني نورما في الساعة الرابعة صباحاً؟

يقول إنهم أناس في عربة على الشاطئ، وما عليها إلاّ أن تصغي بالفعل، فتصغي وتضحك ثانية: لا شيء البتة. وحينئذ، يقول لها إن هي تريد سماع نورما، فهذا شيء ممكن. فهو يمتلك مدّورة أسطوانات في البيت، تتركه ينصرف. وكان أن أغلق الباب ثانية، وبعد قليل كانت الغرفة تمتلئ بصوت كالاس.

يعود ثانية، ويغلق الباب خلفه. يقول لا أمتلك الجرأة لأفرضها عليك.

عندما تستمع إلى نورما، تقبل يديه وذراعيه. لا يبالي.

وفجأة ينطلق مرة أخرى داخل البيت بفظاظة، فيوقف الأسطوانة، ويخرج.

ها هو على رصيف المقهى، وقد اختفى القمر، والسماء صافية، بحيث يستطيع المرء أن يتخيلها زرقاء. وها هو أقصى ما يصل إليه البحر من جزر. والشاطئ مكشوف تماماً بعيداً عن أرصفة الممر المائي. لقد صار منطقة شاسعة مهجورة ومحفّرة بالبرك والنقر. ومعظم الناس من العابرين يسيرون على حافة البحر، ولا سيما الرجال. وبعضهم الآخر على العكس يمرون قرب حائط الغرفة، لا ينظرون. لم يكن يعرف، ولوقت طويل ما يخص هؤلاء العابرين. كان يظن أن هؤلاء الناس يمضون للقيام بعمل ليلي في محلات صيد السمك الواقعة في ضواحي المدينة، كأسواق. فلقد غادر هذه المدينة وهو لما يزال في ريعان الشباب، في عمر ليس بوسعه أن يدرك شيئاً، وبقي غائباً زمناً طويلاً. كان له متسع من الوقت ليكسب عيشه هنا على الأقل لبضعة شهور. لقد كان يرحل من هنا بانتظام، لأسباب عاطفية دائماً. وإلى هنا يعود دائماً. وبما أنه كان لا يملك سوى هذا البيت، فهو لا يذهب إلى أي مكان يمكن أن يعيش فيه.

يتذكر: عندما يكون بعيداً عن هذا المكان، لا يتطلع إلى البحر حتى وإن كان على عتبة بابه.

لم يقم بأي شيء. إنه شخص لم يقم بأي شيء، وإذاً فإن عدم القيام بشيء ما يشغل جلّ وقته. ربما تعرف هي، هي بالذات، أنه لا يعمل. وذات يوم، قالت له إنه يوجد في هذه المدينة كثير من الناس العاطلين، يعيشون على تأجير البيوت الصيفية.

الناس الذين يمرون، دائماً: يذهب بعضهم إلى المدينة، يسيرون باتجاه مصب النهر. إنهم هؤلاء الذين يجيئون ثانية. أما بعضهم الآخر فيمضي باتجاه متاهة الصخور، والكتل الداكنة. إنهم يسيرون كهؤلاء العائدين، وهم لم يتأملوا أو يروا شيئاً.

وفي البعيد، نحو الشمال، يميز المرء مكان الكتل الصخرية وما تبقى من الأفق. فهناك في أسفل تل جيري، توجد كومة داكنة. ويتذكر أن هناك توجد غرف حمامات محطمة، فضلاً عن وجود حصن ألماني ساقط من الجروف.

في الغرفة، كانت تجلس تحت ثريا الضوء الأصفر، وكان عندما يعود من رصيف المقهى، أحياناً، كهذا المساء، ينسى أن هذه المرأة موجودة في الغرفة.

يتذكر أنها متأخرة عن الوقت المعتاد قليلاً هذا المساء، لم يخبرها عما يجول في خاطره، يتشاغل، ليس لأنه نسي تنبيهها، وإنما على الأرجح لأنه لا أهمية لهذا التأخير، ولما قد يحصل فيها بعد، خلال قادم الأيام عندما يحملها على الاعتقاد أنه وقع في حبها.

تقف منتصبة القامة تحت ضوء الثريا وهي تشيح بوجهها نحو الباب. تراقبه وهو يتقدم في الغرفة كما يحدث ذلك كل يوم بذات الانفعال الذي حدث له للمرة الأولى في هذا المقهى على شاطئ البحر، بجسده العاري وساقيه اللتين تشبهان ساقي يافع بطولها ونحافتهما، وبنظرته الحائرة، لما فيها من عذوبة مدهشة. يمسك نظارة بيده، وها هو يراها بشكل مشوش.

يقول إنه كان على شاطئ البحر يتفرج على المارين مثلما في كتاب ينبغي أن تقوم بتأليفه. لم يكن قد سافر، ولم يعد يفكر بالرحيل منذ أيام سلفت.

ولقد كان الحال أنه معها في الغرفة التي اعتاد الذهاب منها إلى رصيف المقهى ليلاً لتأمل البحر.

يصمتان معاً كما يفعلان ذلك في الغالب، ولوقت طويل.

هي التي تتكلم، وهي التي تصاب بالقلق بسبب الصمت.

حقاً لم يعد يسمع أحد شيئاً، حتى صخب البحر والريح الممتزجان كما هي العادة. يقول: البحر بعيد جداً، وهو هادئ إلى حدّ ما، حقاً، لم يعد هناك شيء.

تنظر حولها. تقول: ما من أحد يعرف ماذا يجري في هذه الغرفة. وما من أحد بوسعه التكهن بما سيحدث فيما بعد. تقول إن الأمرين مخيفان على حد سواء بالنسبة إلى الناس الذين يحدّقون فيهما. يقول مندهشاً: من ذا الذي ينظر إليهما؟ سكان المدينة يعرفون جيداً أن البيت لم يكن فارغاً، وهم يرون النور عبر المصاريع المغلقة ويتساءلون. عم يتساءلون؟ لو تم استدعاء الشرطة، فإن الشرطة تسأل: لأي غرض أنتما هنا؟ وهما يسعيان أن يقدما أي تبرير ممكن. وهكذا.

يقول: لم يعد بوسع أحد أن يتعرف على نفسه ذات يوم. وبسرعة سيفرغ البيت، ويباع. ولن يكون لدي طفل.

لا تصغي إليه، فهي تتكلم بدورها. وتقول:

- ربما هنالك شخص ما في الخارج يستطيع أن يتوصل إلى معرفة ما يجري الآن في الغرفة. شخص ما يراهما نائمين بكل بساطة ويعرف، من خلال النوم، ووضع الأجساد، إن كان سكان الغرفة يمارسون الحب أم لا.

وترى أيضاً أن الأمر متأخر للغاية، فهما ينامان كل يوم وقتاً طويلاً جداً. لم تفصح عن الفائدة، ماداما لم ينتظرا شيئاً. تقول شيئاً آخر مختلفاً: تقول إن الأمر يتطلب وقتاً للتفكير بنفسيهما، ومصيريهما.

تتمنى أن يذكّرها بما قالته منذ مدة وجيزة عندما استيقظت. يحاول أن يحدثها وهي في حالة النعاس والتشوش، فيتذكر في اليقظة ما قالته. لكنها هنا تتذكر حقاً صوت المرأة الذي يشبه صوتها، وتتذكر الجملة المعقدة والمؤلمة المنتزعة من لحمها، حتى إنها لم تكن تفهمه على الفور فجعلها تجهش بالبكاء.

تكتشف ما قالته وهي نائمة. لقد كانت تتحدث عن الوقت الذي يمضي في الغرفة. ربما تحب حقاً معرفة كيفية الإعلان عن هذه الرغبة للإمساك بهذا الوقت الذي يمضي بجانبه، وجهاً لوجه، وجسداً لصق جسد، وهما في حالة عناق. تقول إنها تتكلم عن هذا الزمن الذي يجري بين الأشياء، وبين الناس، الزمن الذي يبدده الآخرون، من دون أن يعيروا أنفسهم اهتماماً. هؤلاء الناس التائهون. لكنها تقول إنها ربما لا تتكلم عنه هو الذي يستثمر هذا الوقت الذي تحاول الفوز به.

تبكي، وتقول إن الأكثر إثارة للرعب هو نسيان العشاق، وهؤلاء الشبان الغرباء من ذوي العيون الزرقاء والشعر الأسود. أما هو فيظل واقفاً جامداً، وعيناه تدوران هنا وهناك. بينما تتمدد هي وتتغطى بالشراشف، أما وجهها، فتغطيه بالحرير الأسود. يتذكر أن الوقت الذي يمر مناسب حقاً لما يجب أن يكون موضع كلام في هذا الخطاب الغريب الذي يوقظها أحياناً.

تهذر.

في الليل، تقوم بذلك أحياناً. وهو يصغي لكل ما تتحدث عنه وترويه بانتباه. هذه الليلة، تقول حينما سيفترقان لن يتذكرا فيما بعد أية ليلة على وجه الخصوص، وأي كلام، وأية صورة يمكن أن تكون مميزة عمّا تبقى من الكلام، وما تبقى من صور. إنهما سيحتفظان بذكرى راسخة عن فراغ الغرفة، ومسرح الضوء الأصفر والشراشف البيضاء والحيطان.

يتمدد قريباً منها جداً، ولا يسألها. إنها متعبة متعبة جداً فجأة، وعلى وشك أن تجهش بالبكاء. يقول: سنحتفظ بذكرى عن الحرير الأسود فضلاً عن الخوف والليل. يقول: والاشتياق أيضاً. تقول: حقاً، اشتياق كلّ منا للآخر في الوقت الذي لم نفعل فيه أي شيء.

تقول: كنا نكذب. لا نريد أن نعرف ما يجري في الغرفة. لم يسألها لماذا هي متعبة.

تستدير حول نفسها، وتتمدد بامتداد جسده، لكنها تبقى هناك من دون أن تقترب منه، بينما وجهها تحت الحرير الأسود دائماً.

تقول إنها في هذا المساء كانت مع شخص قبل أن تعود إلى بيته، وأنها استمتعت متعة هائلة مع هذا الرجل الآخر، بهذا الشوق الذي كانت تكنه له، وهذا ما جعلها متعبة.

يمر وقت طويل، وهي لم تعد تعرف عنه شيئاً. ثم يتكلم، ويسأل كيف كان هذا الرجل، ما اسمه، ولهه، ولون بشرته، فمه، صرخاته. يظل يسألها حتى الفجر، وفي نهاية المطاف يسأل عن لون عينيه. تنام.

يحدق فيها، وفي كثافة شعرها المشبوك، وفي عمق اللمعان الأسود، الوميض الأشقر الذي يستدعي وميض الأهداب، ثم العينين المخضبتين

بالزرقة. يحدق فيها من الرأس حتى أخمص القدمين، فيعاين هذا التكافؤ الجسدي اعتباراً من محور الأنف، والفم، ويعاين في الجسد كله، هذا التكرار، وهذا الصدى الذي يضاهي إيقاعات القوة والضعف. يا له من جمال!

يقول لها إنها جميلة، جميلة أكثر من أي شيء رآه. يقول لها إنه في المساء الأول، حينما ظهرت أمام باب الغرفة، كان يبكي. وهي لا تريد أن تعرف على ماذا، ولم تعد تفهم ما يقال عن هذه الكارثة.

يذكّرها أنها كانت تتأخر لثلاثة أيام عن الوقت المعتاد. يسألها إن كان هذا الرجل هو السبب في ذلك. تحاول أن تتذكر. كلا، لم يكن هو. في هذا اليوم الذي يتحدث عنه، كان قد اقترب منها على الشاطئ. لقد كان ذلك اليوم هو اليوم الذي ذهبا فيه إلى الغرفة في الفندق للمرة الأولى.

اعتباراً من هذا المساء، ستصل متأخرة أكثر مما ينبغي. ومن ناحيتها لم تفصح عن سبب تأخرها. ينبغي أن يسألها عن ذلك، وعندئذ تخبره بالأمر. إنه بسبب هذا الرجل، فهي تلتقي به عصراً، ويبقيان معاً حتى الساعة المتفق عليها، الساعة التي تعود فيها إلى هذه الغرفة لقضاء الليل فيها. هذا الرجل يعرف بوجوده، فقد أخبرته عنه، وهو أيضاً يستمتع بشدة بالتوق الذي تكنه هي لرجل آخر.

عندما تكلمه عن هذا الرجل، تحدق عيناها فيه دائماً، وفي الغالب الأعم فإنها تتكلم وهي على وشك النوم.

وعندما تستغرق في النوم، يعرف ذلك من فمها الذي ينفرج، ومن عينيها اللتين تتوقفان عن الارتجاف تحت الأجفان واللتين تغوصان فجأة

باتجاه معاكس للوجه. وحينئذ يقلبها نحو الأرضية بهدوء، في مدى نظره. تنام. يحدّق، ويزحلق الحرير الأسود، يحدق في الوجه، الوجه، دائماً.

في هذا المساء التهمت قبلات الرجل الآخر خضاب عينيها، وظلت أجفانها عارية، بلونها الذي يشبه لون التبن الأشقر، هنالك جروح طفيفة على نهديها. يداها مفتوحتان، ومتسختان إلى حد ما، وقد تغيرت رائحتها.

هذا الرجل موجود كما تقول.

يوقظها.

يسألها على الفور من أين قدمت، من هي، وما هو عمرها واسمها، وعنوانها، ومهنتها.

لا تنبس ببنت شفة؛ لا من أين أتت ولا من هي، ولا تعلن عن اسمها.

إنها النهاية. ولن يلح ثانية. يتحدث عن شيء أخر.

يقول: في شعرك، وعلى بشرتك، عطر جديد، من الصعوبة بمكان معرفته.

تخفض عينيها لتخبره. لم يعد عطره في جسدها وحسب وإنما أيضاً عطر الرجل الآخر. وإن هو يرغب بذلك، فإنها ستعود وعليها عطر هذا الرجل وحده، غداً، إذا كان يرغب في ذلك. لم يفصح إذا كان هو يرغب في ذلك.

وذات ليلة يسألها عن السبب الذي جعلها تذهب إلى طاولته في المقهى المطل على شاطئ البحر. ولماذا قبلت هي اتفاقاً حول ليال بيضاء.

تتعثر في كلامها. تقول:

- لأنه منذ أن دخلت أنت هذا المقهى وفي الحالة التي كنت فيها، وفي هذا العذاب المسالم، هل كنت تتذكر، أنك كنت تتمنى الموت، وكنت أنا تمنيت

الموت بدوري بهذه الطريقة المسرحية والغريبة. تمنيت أن أموت معك، وقلت في نفسي: أضع جسدي قرب جسده وأنتظر الموت. ولك أن تتصور ذلك من دون شك، إنني أحمل على كتفي ثقافة يجب أن تؤهلني إلى الاعتقاد أنك كنت وغداً وهذا ما جعلني خائفة منك، ولكنك كنت تبكي، لم أر سوى ذلك فبقيت. وفي الصباح، على الطريق الدولي، عندما قلت إنك تريد أن تدفع لي نقوداً، نظرت إليك من رأسك إلى أخمص قدميك. لقد رأيت ثياب مهرج وحول عينيك رأيت كحلاً أزرق. وعندئذ علمت أنني لم أخدع، وأنني أحببتك، على العكس مما تعلمته، وذلك لأنك لم تكن وغداً ولا قاتلاً، لقد كنت ميتاً.

يحسب أنه يدرك من خلال الابتسامة تدفق الدموع والغياب، والرياء الجديد في النظرة، هذا الرياء الذي حدث بعد خمسة عشر يوماً من بداية الأحداث. لقد كان مذعوراً منها.

تقول:

- لا أعرفك. وما من أحد بوسعه أن يعرفك، وأن يضع نفسه مكانك، فأنت لا تملك مكاناً، ولا تعرف أين تجد مكاناً. ولهذا فإنني أحبك، ولهذا أنت تائه.

تغمض عينيها. تقول:

- في هذا البيت الواقع على شاطئ البحر، كنت تائهاً مثل شعب لا نسب له. في هذا المقهى أدركت أنك كنت تتمنى أن تحصل على هذه السمعة، وهذه الحالة، فبقيت معك لحين من الوقت من حياتي - في عز شبابي -حيث كنت أنا كما لو أن هذا الشعب التائه كان هو شعبي أيضاً.

تتوقف، تحدق فيه، ثم تخبره أنها خلال الساعات الأولى من اللقاء به أدركت أنها بدأت تحبه، وكأن المرء يعرف أنه بدأ يحتضر.

يسأل إذا كانت هي معتادة على الاحتضار.

تقول إنها تتوقع ذلك، وأنه أمر يعتاده المرء بشكل أفضل، وتقول:

- ومن ثم، في آخر الليل، كان الوقت مايزال متأخراً لكي أرفض. وهذا الأمر كان برمته متأخراً كي لا أحبك. النقود، وهذا ما تفكر فيه، كان يجب أن تؤكد على الموت، وأنت كنت تدفع لي من أجل ذلك، من أجل ألاّ أحبك. أما أنا، وعبر كل هذه الأحابيل، كنت قد أدركت فقط أنك لمّا تزل شاباً وحكاياتك عن النقود لا تفيد بشيء.

يريد أن يعرف عن رجل المدينة هذا.

تقول له: إنهما يلتقيان عصراً في غرفة في الفندق، استأجرها لمدة شهر ليلتقيا فيها خلال العطلة، ويبقيان معاً في هذه الغرفة حتى الساعة المتفق عليها. وهو لا يأتي أحياناً، وعند ذاك تخلد إلى النوم، وهذا هو سبب تأخرها، لأنه هو الذي يوقظها عادة. وإذا لم يكن هو هناك، فهي لا تستيقظ. وفي بعض المرات تمضي مباشرة وهي خارجة من الغرفة إلى هذا الفندق وتبقى فيه حتى مساء اليوم التالي.

تخبره أنها استقالت من وظيفتها كأستاذة. يصرخ بها يا لك من حمقاء، مجنونة، يقول. لست أنا من ينفق عليك، ولا تتوقعي مني ذلك. تضحك كثيراً كثيراً، وينتهي به المطاف إلى أن يضحك معها هو الآخر.

كان مستلقياً على مقربة منها، وهي تحت الحرير الأسود مغمضة العينين. تداعب العينين، ونقرة العينين، والفم والجبهة ونتوء العظمة

المستعرضة. تبحث عمياء عن وجه آخر، من خلال البشرة والعظام. تتكلم، وتوضح أن هذا الحب مرعب أن يعاش مثله مثل القارة الهندية الشاسعة. ثم تصرخ.

تسحب يديها من وجه رجل الغرفة وكأنها قد احترقت، تشيح بوجهها عنه، وتمضي فتنطرح جانب حائط البحر. وتصرخ.

يتصاعد منها النحيب، فهي أمام خسارة تكتشفها على الفور بدواعي المعايشة.

يحدث شيء ما بالتزامن مع مباغته الاحتضار.

تنادي على شخص ما بصوت خفيض جداً، مبهم، تناديه وكأنه أمامها، وكأنها تحتضر، ماوراء البحار، والقارات، باسم الجميع تنادي على رجل واحد بصوت رنان مركّز بحرف علة معطش بالشرق، يخرج من سقوف فندق دي روش في نهاية عطلة الصيف هذه.

تبكي بعيداً عنه، عن هذا الرجل، بعيداً عن واقعه، في هذا الجانب من الحكاية كلها، تبكي الحكاية التي لم يكن لها وجود.

لقد أصبح الرجل ثانية رجل الغرفة وحده. وفي البدء، عندما صرخت، لم يحدق فيها، فقد نهض لينصرف، ليهرب. ومن ثم سمع الاسم، وحينئذ اقترب منها بكل هدوء، وقال:

- هذا فضول أن أحاول أن أتذكر بالنيابة عنك، وكأن الأمر كان ممكناً. كان يبدو لي أنه بالإمكان أن أفعل ذلك، منتهزاً الظروف والمكان والنوايا... وفي الوقت نفسه أعرف أن الأمر غير ممكن بسبب... أن شيئاً مشابهاً، مرعباً، من الغريب أن أنساه.

وكأنه لم يكن قد تكلم، تظل مديرة ظهرها له، ووجهها قبالة الحائط، تقول له أن يرحل. تطلب منه الذهاب إلى البيت، وأن يتركها وحدها.

تبقى في الغرفة نهاراً بكامله.

وعندما يعود إلى الغرفة، يجدها واقفة في إطار الباب المفتوح مرتدية ملابس بيضاء.

تبتسم، وتقول:

- هذا هو الذعر.

يسألها ما الذعر. تقول:

- حكايتنا الخاصة.

يسألها عمّا حدث لها. تقول لقد كان وجهه، الذي كانت تداعبه، ولكنها، من دون أن تدرك ذلك بلا شك، ومن غير أن تعرفه، كانت قد بحثت عن وجه آخر كوجهه. وعلى حين غرة كان هذا الوجه الآخر بين يديها.

لم يعر اهتماماً لما تقدمه من مبررات. تقول:

- لم أفهم. كان مثل شبح، ولهذا السبب كنت خائفة.

تقول إنهما كانا وكأنهما يتصفحان معاً في كتاب، وعند نهاية الكتاب سيعاودان التيه في المدينة، بحالات جديدة من الانفصال.

ستتحدث عن الحادث بشيء من التخفيف. وستقول:

- ربما حدث هذا الأمر بالفعل بعيداً من هنا، منذ سنوات، في بلاد غريبة، خلال صيف باهر، كما هو الحال بالنسبة إليك، حيث جعلتك هذه الآلام المميتة في أيام العطلة تبكي. وربما يمكن أن يكون هذا الحادث منسياً

إلى الحد الذي لم يحلم به أحد، أبداً، وفجأة يصير ثانية في متناول اليد بقوة المرة الأولى، مفعماً بحب مجنون، مفاجئ.

يقول إنه أخذ ينسى الشاب الغريب ذا العينين الزرقاوين والشعر الأسود. وفي اليقظة، تراوده الشكوك، أحياناً، أن الحكاية ربما قد وقعت بالفعل. كحكاية هذا الوجه الذي بحثت عنه من دون أن تعرفه، وجه الشاب الغريب الذي يتلبس وجهاً آخر في اعتقادها، ولكن في المستقبل. يقول إن ذلك الوجه الأصم الذي مايزال يتذكره، يبدو لها الآن وجهاً عدائياً فظاً.

تقول له منذ ذلك الحين كان هو من أرادت محبته من دون شك، وكان عاشقاً كاذباً، رجلاً لا يحب.

يقول:

- قبل أن أتعرف على نفسي كنت أنا إذاً.

- نعم، الدور كما هو على المسرح، حتى قبل أن أعرف أنك على قيد الحياة.

إنه يعاني من رعب ما، ولا يحب أن يتحدث أحد عن هذا، عن بعض الأمور المحددة. يقول إنهما كانا قد تكلما عن ذلك الذي لا يحيطان به علماً. لم تكن متأكدة من ذلك. تقول:

- أنت على خطأ، فربما ذلك ليس صحيحاً، لقد عرفت كل شيء بطريقة معينة، كل شيء وكل الناس. أسمع، وأحدق في الموت، وكأنني أعرفه جيداً.

يبقى جامداً تحت الضوء الأصفر برهة من الوقت، وتحت تأثير صوت الكلمات المخيف، يطلب منها أن تدنو منه، وتتمدد إلى جواره، فتأتي وتتمدد

إلى جواره، ولكن من دون أن تمس جسده. يسأل فيما لو أن هذا الوجه هو وجه ذلك الشخص الميت والذي وجدته بين يديها.

ترد رداً متمهلاً. تقول لا، من دون شك لا.

يتمنى أن تأتي تحت الضوء. لا تستطيع المجيء مرة أخرى. تطلب منه أن يتركها لحالها، ولا يتركها، يسألها:

- لم صرخت؟

- لأنني كنت مؤمنة بعقاب من السماء.

يناما، ويستيقظان، ويسأل ثانية كيف كان هذا الحب، وكيف عاشه، تقول:

- كأي حب له بداية وله نهاية. ثابت في الذاكرة حتى وإن أنكره المرء، لم أعد أعرف.

تقول: إن عليها أن تعيش، كما يفعلان ذلك، والجسد مرمى في جزيرة، وفي الروح، ذكرى قبلة وحيدة، وكلمة واحدة ونظرة وحيدة من أجل الحب كله.

تنام.

يقول: لقد كان مساءً رائعاً، بعذوبة استثنائية، وما من نسمة ريح، كانت المدينة بأسرها خارجة، ولم يتحدث أحد سوى عن برودة الهواء، وعن درجة الحرارة في المستعمرة، والبلاد المصرية في الربيع، وجزر جنوب الأطلنطي.

كان هناك عدد من الناس يتأملون غروب الشمس، وكانت الصالة تشبه قفصاً من زجاج وضع فوق البحر. وفي الداخل نساء مع أطفال، كن

يتكلمن عن سهرة صيف، كن يقلن، كان من النادر أن تغتنم الفرصة لثلاث أو أربع مرات في الموسم ربما، وعلى الأقل أن يستفيد المرء من ذلك قبل الموت، لأن أحداً لا يعرف إن كان الله يشاء للمرء أن يعيش ثانية فصول صيف جميلة كهذه.

لقد كان الرجال، في الخارج، على رصيف الفندق، نسمعهم مثلما نسمع النساء في الصالة بوضوح، هم أيضاً يتكلمون عن فصول صيف مضت. والكلمات هي ذاتها، والأصوات خافتة وخاوية تماماً.

تنام.

- لقد اجتزتُ ساحة الفندق، وذهبتُ إلى مقربة من نافذة مفتوحة، أردت الذهاب إلى الرصيف مع الرجال، لكنني لم أجرؤ على ذلك. لقد بقيت هنا أحدق في النساء. كم كانت جميلة هذه الصالة، الموضوعة على البحر أمام مركز الشمس.

تستيقظ.

- وصلتُ إلى مقربة من النافذة حتى رأيته، كان عليه أن يدخل من خلال باب المتنزه. رأيته حينما كان في وسط اجتيازه للصالة، وقد توقف على بعد بضعة أمتار مني.

يبتسم، يحاول أن يسخر، لكن يديه ترتجفان.

- هذا ما حصل، هذا الحب الذي لم أكن قد حدثتك عنه، لقد كان هو، هو الذي رأيته شاباً غريباً ذا عينين زرقاوين وشعر أسود، إنه هو بشكل مؤكد، إنه ذاك الذي من أردت الموت من أجله في ذلك المساء وبحضورن في المقهى على شاطئ البحر - يبتسم، ويسخر، ولكنه مايزال يرتجف.

تحدق فيه، وتردد الكلمات لتنطق بها: شاب غريب ذو عينين زرقاوين وشعر أسود.

تبتسم، وتسأل: أهو الذي أخبرتني عنه سابقاً، وهو الذي ارتحل مع هذه المرأة التي ترتدي الملابس البيضاء؟

يؤكد فيقول: إنه هو.

تقول:

- في ذلك المساء مررت من خلال الصالة، ولكن في بضع دقائق، للالتحاق بشخص كان عليه مغادرة فرنسا.

تتذكر صخب النساء في الصالة، والكلمات التي قيلت حول المناخ الاستثنائي لهذه الأمسية بالذات، من الصيف الفائت.

ولكن عن الأمسية بالذات، لم تتذكر شيئاً.

تحاول، نعم، أن تتذكر الدهشة المشتركة أمام ندرة أمسية صار الحديث عنها مثل الحديث عن شيء للاحتفاظ به بمأمن من الموت وذلك من أجل سرده للأطفال فيما بعد. وكذلك فهي ربما لإخفاء أمسية الصيف هذه، وإحالتها إلى رماد.

تصمت مدة طويلة. تبكي.

تقول إنها تتذكر السماء الحمراء على وجه الخصوص، من خلال الستائر المسدلة لغرفة فندق دي روش التي مارست فيها الحب مع شاب غريب لا تعرفه، يمتلك عينين زرقاوين وشعراً أسود.

يبكي هو الآخر. يصمت، ويبتعد عنها.

تقول إن هنالك كثيراً من الغرباء الذين قدموا في الصيف إلى هذه المحطة لتعلم اللغة الفرنسية، وإنهم دائماً من ذوي الشعور السوداء، والعيون الزرقاء أحياناً. وتضيف: أما سحنتهم فهي سحنة كامدة، كالإسبان. ألم تلحظ ذلك؟ نعم. لقد لاحظ.

يسألها فيما لو أنه في لحظة معلومة من الليل، هناك على مقربة منها، في الصالة، لا يوجد مع ذلك، في لحظة، وربما في ثوان، شاب آخر يرتدي الملابس البيضاء، شاب آخر ذو عينين زرقاوين وشعر أسود. تسأل:

- يرتدي ملابس بيضاء؟

- لم أعد متأكداً من شيء، يبدو لي أنه كان يرتدي الملابس البيضاء، أجل، وهو جميل.

تحدق فيه، وهي التي تسأل:

- من هو؟

- لا أعرف، لم أعرفه من قبل.

- وما هو سبب غرابته؟

لم يجب. تبكي، وتبتسم له من خلل الدموع.

- أيكون قد رحل إلى الأبد؟

- على الأرجح.

يبتسم لها هو أيضاً من خلال الدموع.

- لقطع أي رجاء مقدماً.

يبكيان. يوجه السؤال هو بدوره:

- وهل رحل هو أيضاً حقاً؟

- نعم، إلى الأبد.

- وكانت لكما حكاية.

- لقد بقينا ثلاثة أيام بكاملها في هذه الغرفة بفندق دي روش. ومن ثم، حان يوم رحيله، في ذلك النهار الصيفي الذي قلت فيه إنني لم أر شيئاً منه باستثناء تلك الثواني في الصالة. فقد هبطت أنا أولاً من الغرفة وكان عليه أن يلتحق بي. لقد كان الوقت متأخراً.

يتردد. يطلب منها أن تحدثه عنه، فتحدثه عنه:

- كلا. لقد كان يحب أن يكون مع النساء.

يتحدث واعظاً:

- عاجلاً أو آجلاً سيأتي إلينا، سيأتون جميعاً، يكفي أن ننتظر الوقت الذي ينبغي.

تبتسم، وتقول:

- وهو ربما لم يبق في الغرفة.

يغمض عينيه. يقول إنه يرى الصالة ثانية في ضياء الصيف ويسأل:

- أكان لا يريد أن يهجرك، أليس كذلك؟

- وهو كذلك، كان لا يريد، كان لا يريد.

- والجريمة التي تحدثت عنها. أكانت هي تلك؟

- لقد كانت هي.

- انفصالك.

لم تنظر إليه. تقول: نعم. وتقول:

- لماذا؟ هيا... لا أعرف. لا أعرف بعد. وليس بوسعي أن أعرف أي شيء ربما، فربما الجمال، كان مدهشاً ولا يمكن تصديقه، وكان هناك أيضاً، هذا الجمال العميق الذي يمتلك مظهراً مفترساً وله معنى، هو الجمال دائماً. على العكس مما يمكن أن يفكر فيه المرء، فقد جاء من الشمال، من فانكوفر. إنه يهودي على ما أظن، وكان منفتحاً على فكرة الرب.

تقول: وربما فكرة السعادة، والرعب.

تقول: أو ربما فكرة الرغبة القوية والمرعبة للغاية.

يسألها:

- أحياناً، وأنت نائمة تتلفظين بها يشبه الاسم، كلمة. هذا قبيل الصبح، وعلى المرء أن يكون قريباً من وجهك لكي يفهم ذلك، إنها بالكاد كلمة، ولكن يمكن الاعتقاد أنها تشبه تلك الكلمة التي أطلقها الصوت المنادي في الفندق.

تحدثه عن هذه الكلمة. وكانت هذه الكلمة هي الاسم الذي دعته به، ودعاها به، في عودتها في اليوم الأخير. وفي الواقع كان ذلك هو اسمه، ولكنها شوهته. وكانت أن كتبته في صباح رحيله قبالة الشاطئ المهجور بسبب الحرارة.

لقد كانت تحدق فيه وهو نائم. وفي حوالي الظهيرة، أيقظته ليحتضنها ثانية، ففتح عينيه، ولم يبد أية حركة. فكانت هي التي احتضنته وتداخلت فيه، بينما كان هو تحتها ميتاً من العذاب الذي يحتم عليه تركها. وعند ذاك دعاها باسمها الحقيقي، الاسم الشرقي الذي شوهته.

لقد ذهبا إلى الشاطئ للمرة الأخيرة، ثم لم يعودا يعرفان ما يفعلانه حتى ساعة الرحيل.

لقد ذهب إلى الغرفة ليأخذ حقائبه. أما هي، فلم تكن راغبة في المجيء إليها. لقد كان في إمكانه دعوتها في هذه اللحظة، خشية أن تهرب من الصالة قبل نزوله من الغرفة ثانية.

تتذكر الصيحة التي قدمت من سقائف الفندق. وكانت لديها رغبة فعلية للهرب في اللحظة الأخيرة، وكانت هذه الصيحة هي التي أوقفتها في الصالة.

يسأل إن كان يبكي. لا تعرف، فهي لم تعد تحدق فيه، وتريد أن تفقده.

ثم حان الوقت.

- لقد رافقته إلى طائرته، إنها سلوكيات دولية.

- كم العمر؟

- عشرون عاماً.

- نعم.

يحدق فيها، ويقول: مثلك. يقول:

- في الأيام الأولى، كنت تنامين في الغرفة كثيراً. كان ذلك بسببه، بينما أنا لا أعرف ذلك وأنا الذي من كان يوقظك.

بقيا يتكلمان وقتاً طويلاً. تقول:

- باسمه كونت عبارة. وفي هذه العبارة يدور البحث عن بلد من الرمل، وعن عاصمة من الريح.

- ولن تقوليها أبداً.

- سيقولها لي الآخرون فيما بعد.

- ماذا تعني هذه الكلمة في العبارة؟

- استواء المصائر أمام نومه، وربما، هذا الصباح؟ أمام الشاطئ، أمام البحر، أمامي؟ لا أدري.

يصمتان ثانية. يسأل:

- ورغم ذلك، أكنت تنتظرين رسالة يخبرك فيها بعودته؟

- نعم، وأنا لا أعرف اسمه ولا عنوانه، غير أنه يعرف اسم الفندق الذي كنا فيه. لقد أبلغت الفندق بهذا الشأن، عن رسالة كُتبت على ظرفها هذه الكلمة، ولا شيء سوى ذلك.

- وأنت مستعدة للموت.

تحدق فيه، وتقول:

- ليس بوسعنا أن نفعل شيئاً آخر: فلقد ذهبت بنفسي إلى بيتك لأحتضر وقتاً أطول.

يطلب منها أن تنطق بالكلمة. يصغي إليها وهي تنطق بها بعينين مغمضتين. يطلب منها أن تنطق بها مرة إثر مرة، تنطقها له وهو يصغي دائماً. يبكي، ويقول لقد كانت هي بالفعل من أطلق الصراخ في الفندق. لقد تعرّف على الصوت ثانية وكأنه سمعه. وهي لم تكذب، تقول: كما تريد.

يبقى دائماً وعيناه مغمضتان أمام الشاب الغريب ذي العينين الزرقاوين والشعر الأسود. يقول إنه لا يفهم هذه الكلمة، وإنه كان قد فكر أن هذه

الكلمة ربما لا تعني شيئاً حتى اللحظة التي سمعها فيها للتو مثلما سمعها الشاب الغريب ذو العينين الزرقاوين والشعر الأسود في غرفة فندق دي روش الذي كان فيه مع امرأة.

وهي الآن تتذكر الصيف جيداً، وهذه الأمسية، وأقفاص الضوء الكبيرة المفتوحة على طول البحر والصامتة فجأة أمام جمال الأشياء.

يطلب منها ألاّ تضع الحرير الأسود على وجهها هذه الليلة، لأنه يريد أن يتأملها وهي نائمة.

يحدق في هذه النائمة التي أثّر فيها الشاب الغريب ذو العينين الزرقاوين والشعر الأسود. وعندما حل الصباح، يتكلم عن نومها، يريد أن يحلم بها، وهو لم يحلم بامرأة قط. ولا يتذكر أيّ حلم، يا لها من تفاهة ويا له من بؤس! ففي أي شيء كان يمكن أن تمتزج امرأة ما؟

النهارات قصيرة، والليالي طويلة، ويحل الشتاء. في ساعات اقتراب شروق الشمس، تبدأ البرودة بالنفاذ إلى داخل الغرفة، وبالكاد أيضاً، وفي كل يوم، يذهب ليجلب الأغطية من البيت المغلق.

تهب اليوم عاصفة، وصخب البحر قريب جداً. وهذا المدّ الكبير يضرب جدار الغرفة. كل ما في الغرفة من زمن وبحر صار حكاية.

يتحدث عن مغادرة فرنسا، والذهاب إلى بلاد أجنبية حارّة. إنه يخشى الشتاء في فرنسا، وسيعود في السنة القادمة في الصيف.

تقول في كل مرة يتحدث فيها عن الرحيل، إنها تسمع كلاب الموت في رأسها وحول البيت.

تسأله: في الخارج، ما الفائدة؟ لا يدري. ربما لا شيء، وربما يؤلف كتاباً، وربما يلتقي شخصاً ما. إنه ينتظر ما يشبه لقاءً أخيراً قبل الموت.

تنام. يحدثها وهي نائمة.

لقد كانت نائمة وممددة على مقربة منه على الأرض. يقول:

- لا أعرف بماذا تفكرين، ولا أستطيع أن أتصور أنك قادرة على تحمل ما أقول. لن أقول شيئاً. لن أقول الحقيقة أبداً، لا أعرفها. لن أقول شيئاً يكون مبعث ألم. وفيما بعد، عندما تتألمين، فإنني أخاف مما قلت.

يتردد، ومن ثم يوقظها. يقول:

- ليس من الصعب إحصاء ما تبقى من الليالي، ولا شك أنه سيبقى شيء منها قبل انفصالنا.

تعرف ذلك: حتى ولو كانت الليلة الأخيرة، فليس هنالك من صعوبة في الإشارة إلى ذلك، لأنه سيكون بداية حكاية أخرى، حكاية انفصاله.

يفهم بصعوبة ما تقوله، ولا يمتلك من القصص إلاّ ما هو قصير جداً، من التي لا زمان لها. أما قصة الشاب الغريب ذي العينين الزرقاوين والشعر الأسود فهي القصة الأطول، على قدر ما تستغرقه من الوقت، ولذلك فإنه يحتفظ بها لسبب يعود إليها. وهي تعتقد أنه على خطأ، وأن القصص تحيا من دون أن يعرف المرء ذلك، وأنهما يصمدان حتى نهاية العالم، هناك حيث تنمحي المصائر، هناك حيث لم تعد تتأثر وكأنها حكايات شخصية ولاإنسانية ربما. علاقات حب جماعية، تقول. وهذا ما كان يجب أن يغذي وينظم وحدة العالم.

يضحكان، ومرأى الضحك يحيل إلى الإحساس بأنهما مجنونان من السعادة.

تسأله أن يبلغها إذا ما قيض له ذات يوم أن يحب ويحسن ذلك، وبعد أن ضحكا، يبكيان معاً كما يحدث كل يوم.

عندما ترحل، تغور الشمس، وتلمع في الغرفة، وحينما تغلق الباب تنكفئ الغرفة في الظلمة، وأما هو فقد كان موجوداً بانتظار الليل.

في ذلك المساء تصل متأخرة كعادتها.

تقول إن الجو بارد، وإن المدينة مقفرة، والسماء صافية، وقد غسلتها عاصفة زرقاء إلى حد ما. لم تقل لماذا هي متأخرة. يصمتان زمناً طويلاً، ويتمدد كل منهما قرب الآخر. وهي دائماً جنب الحائط، أما هو فيأتي بها نحو مركز الاهتمام، مكان الضوء المسرحي.

لقد نزعت الحرير الأسود.

تتحدث عن الرجل الآخر. تقول:

- لقد رأيته هذا الصباح في الفندق، وهو يخرج من هنا. كنت أعرف أنه نام هذه الليلة في الفندق. لقد أخبرني بذلك، وكان ينتظرني. لقد كان الباب مفتوحاً، وكان هو واقفاً في وسط الغرفة، وقد أغمض عينيه، لقد كان ينتظرني، وأنا من ذهبت إليه.

يغادر مركز الضوء الأصفر، ويمضي بعيداً عنها، نحو الحائط، تبقى عيناه مطرقتان حتى لا يراها. لم ينظر أحدهما في الآخر، بتصنع غريزي بعدم الاكتراث بشكل منقطع النظير. ينتظر، وهي تستمر في الكلام:

- لقد سألني فيما لو أن شيئاً قد حدث بيني وبينك. قلت كلا، وأن توقي إليك كان يكبر دائماً، لكنني لم أخبرك بذلك، لأنك كنت تشعر باشمئزاز لفكرة الرغبة هذه. وفجأة كنت بين يديه. لقد تركته يفعل ما يشاء.

تقول كان الرجل يصرخ، وكان تائهاً، وكانت يداه قد تحولتا إلى يدين متوحشتين وهو يتلمس الجسد. وكادت المتعة تؤدي إلى فقدان الحياة.

تصمت. يقول:

- سأرحل الآن.

لم تجبه، وكانت قد احتلت مكانه للنوم تحت الضوء، ووضعت الحرير الأسود على وجهها، ولم تعتذر.

يبقى جانب الحائط، ولا يتحرك. لا يقترب منها. عليها أن تفكر: سأرحل الآن مطرودة إلى الأبد. يقول لها إن عليها أن تتغطى بالأغطية البيضاء ثانية، وإنه لا يريد أن يرى. يحدّق فيها وهي تتغطى. تقوم هي بذلك وكأنها لم تكن قد رأته، فيسألها أن تنظر إليه. تنظر.

تتفحص الغرفة من خلال الحرير الأسود، من دون إظهار العينين مثلما يجب أن يتأمل المرء الهواء، والريح. تتكلم عن الرجل الآخر. تقول إنها رأت هذا الرجل على الشاطئ للمرة الأولى، كانا قد التقيا في أول مساء قدمت فيه، وأنها رأته ثانية في ضواحي البيت. تقول إنه من دون أن يتعاشر الناس فيما بينهم فإنهم يتعارفون. لقد جاء إلى رؤيتها أولاً، ومن ثم ذات مساء اقترب منها.

لم يعرف أنها مضت عبر الشاطئ لتعود. تقول إن هذا الأمر لا يحدث دائماً. ففي كثير من الأحيان، تأتي عبر الأزقة خلف الجادة، بيد أنها تنعطف نحو الشاطئ لتصل إليه. تقول: كي تراه. وتقول:

- في ذلك المساء، كان هناك عدد قليل من الناس العابرين بسبب الريح الباردة من دون شك وبسبب الأحداث - ولكنها لم تقل ما هي هذه الأحداث. يضحكان.

هل هي على معرفة بما يحدث قرب الكتل الصخرية بسبب الجو الذي صار بارداً وعاصفاً؟ نعم. تعرف ذلك مذ خرجت من المدينة. تروي: قبل أن تطّلع على ما كان يجري في هذا الجانب من الشاطئ ليلاً، كانت تجهل كل شيء تقريباً. وما كان يجري هناك، كل ليلة تقريباً، يمكن أن تكتبه ذات يوم، حتى وإن كانت هذه المعرفة لا تبدو واضحة لقراءة الكتب التي قد تكتبها، وقد يكون هذا الأمر عبر ما يتطلب أن تقوله الكتب وكيف يجب عليها أن تكون مقروءة.

لقد سمعت العابرين يتحدثون عندما كانت شابة، وكانت فتيات الصف يتحدثن عن الكتل الصخرية والناس الذين يمضون إليها ليلاً. بعض الفتيات كن يمضين إليها لكي يتحرش بهن الرجال، بينما بعضهن الآخر، وهن كثر، لا يجرؤن على الذهاب إلى هناك، لأنهن يشعرن بالخوف. أما اللواتي ذهبن إلى هناك مرة ثم عدن، فلم يعد بوسعهن أن يكونن شبيهات باللواتي لا يعرفن شيئاً. وكانت هي قد ذهبت ذات ليلة إلى هناك، كان عمرها آنذاك ثلاث عشرة سنة. ما من أحد يتكلم فالأمور تجري بصمت. كانت توجد هناك قرب الكتل الصخرية غرف صغيرة. إنهما يستندان إلى جدران الغرف الصغيرة، الواحد قبالة الآخر، وكل شيء يجري ببطء، في البدء بأصابع يده ومن ثم، وهو يصل إلى الذروة، كان يتحدث عن الله، فتقاومه، لكنه يحتضنها بين ذراعيه، وهو يقول لها ألاّ تخاف. وفي

اليوم التالي حاولت أن تخبر أمها عن زيارتها إلى هؤلاء الناس العابرين، ولكن بدا لها أثناء العشاء أن أمها كان يجب أن تكون على دراية مسبقة بما حصل لطفلتها. والطفلة لا تجهل حتى ذلك الحين ما كانت تعرفه أمها عن ذلك المكان. لقد تحدثت عنه حقاً، وذات مرة قالت، إنه يجب الامتناع عن الذهاب إلى هذه الجهة من الشاطئ نهائياً أثناء الليل. فما كانت الطفلة تجهله قبل ذلك المساء، هو هل كانت هذه المرأة هي أيضاً اجتازت خط الاستواء هذا من منحدر آخر. ومن خلال نظرات الأم إلى طفلتها، في ذلك المساء، ومن خلال هذا الصمت فيما بينهما، ومن خلال الضحك المخبوء الذي اجتاز نظرة التواطؤ المخجلة التي تعلمتها، كانتا على المحك من هذا الذي حدث في هذا المكان ليلاً.

في كل مساء تحمل جسدها إلى داخل الغرفة، تخلع ملابسها، وتستلقي وسط الضوء الأصفر، وتغطي وجهها بالحرير الأسود.

وعندما كان يفترض أن تكون نائمة، فإنه يتفحص ما فعله الرجل الآخر بالجسد: في الغالب لم تكن سوى جروح، ولكنها طفيفة، غير متعمدة. في ذلك اليوم كان عطر الرجل قوياً، فقد تغير برائحة العرق، ورائحة السجائر، والخضاب. يرفع الحرير الأسود، وها هو الوجه شاحب.

يقبل عينيها المغمضتين، ولا يعيد الحرير الأسود.

تستدير نحوه، يعتقد أنها ستحدق فيه للتو، لكن لا، لم تفتح عينيها، تستدير ثانية.

في الليل والنهار مازال بعيداً، وفي أثناء مرور الناس القادمين إلى الشاطئ، تطرح عليه سؤالاً ودّت أن تطرحه عليه منذ ليال عديدة.

- أتريد القول إن تعويض الزمن الماضي في الغرفة كان تعويضاً عن زمن ضائع، ضائع من أجل امرأة؟

يتذكر بشكل مشوش في البداية، ثم يستعيد.

- الزمن الضائع بالنسبة إلى الرجل أيضاً. الزمن الذي لم يعد يخدم الرجل بشيء.

تسأله عن أي شيء يتكلم. يقول:

- مثلك، عن حكايتنا، وعن الغرفة. يقول: لم تعد الغرفة تؤدي خدمة ما. كل شيء جامد في الغرفة.

عليه أن يراوغ. كان عليه ألاّ يواجه، أبداً، إن كان بإمكان ذلك أن يخدم شيئاً ما. ماذا يخدم؟ تقول:

- لقد قلت إن الغرفة كانت من أجل إرغامي على البقاء هنا، قربك.

يقول إن هذه هي الحقيقة حينما يتعلق الأمر بفتيات بغايا، لكن الحالة هنا كانت مختلفة.

لم يعد يحاول أن يفهم، وهي كذلك لم تعد تحاول أيضاً. تقول:

- وكان الحال أيضاً من أجل إرغامهن على الرحيل بعد انقضاء الموعد، ويتركنك.

- ربما. لقد خدعت، لم أكن أريد شيئاً.

تحدق فيه طويلاً، فتحتويه بنظرتها وتحتفظ به سجيناً في داخلها حتى الألم. إنه يعرف ما يحدث لها، لكن ذلك لا يعنيه. تقول:

- ربما لا تريد شيئاً على الإطلاق.

وفجأة تنشرح أساريره. يسأل:

- أتصدقين؟

- أصدق، تماماً.

إنه الرجل الذي لم يتبين من يتكلم عنه أو عن الآخر، ولم يلحظ من يرد على الأسئلة ومن أين توجه.

- من الممكن، ولا شيء على الإطلاق.

ينتظر. يتأمل، ويقول: ربما ما حدث هو هذا، هذا الذي لا أتمناه مطلقاً، مطلقاً.

تضحك فجأة.

- بوسعنا أن نرحل معاً إن أردت ذلك. أما أنا فلا أريد شيئاً.

يضحك مثلها، ولكن بنوع من الريبة والخوف، تماماً مثلما يفعل ذلك عندما ينجو من خطر أو تفوته فرصة مواتية لم يكن قد سعى إليها ولم يقو على الإفلات منها.

وخلال الصمت الذي يلي، فإنها تحدثه عنه دفعة واحدة.

تقول إنه حبيبها: أنت حبيبي، لهذا السبب قلت، إنك لا تريد شيئاً.

يشير بإشارة مفاجئة لحماية الوجه بيده، ثم ترتخي يده. يخفض كل منهما عينيه. لم يتبادلا النظرات، إنهما يخشيان أن تلتقي عيونهما، لم يعودا يتحركان. إنهما يخافان أن تتقابل عيونهما.

تصغي، يأتي هذا من الكتل الصخرية والشاطئ الذي يقع أمام الغرفة. ينبعث صمت غير مألوف. يتذكران أنه ومنذ عهد قريب مرّ عشرات

الرجال قرب الجدران. وفجأة ها هي الصافرات تنطلق، صراخ وصخب الركض. يقول: الشرطة، وهناك كلاب.

لم يقصد أن يقول هذه العبارة، فيغض النظر عنها. تلتقي نظراتهما خلال مدة وجيزة، فيما يشبه مسقط بريق زجاجة تحت شمس الغرفة. تحت هذه النظرة الخاطفة، احترقت عيونهما، فتهرب وتغمض. وفي أتون الصخب يهدأ، ويستغرق في الصمت.

لقد أشاحت بوجهها، وغطته بالحرير الأسود. وهو يشاهدها تقوم بذلك، يقول:

- أنت تكذبين فيما يخص المتعة مع هذا الرجل.

لا ترد؛ لقد كانت تكذب.

يصرخ، ويسأل كيف كانت المتعة مع هذا الرجل.

تصحو من النوم، لكن عينيها تظلان مغمضتين. تردد:

- إلى حد فقدان الحياة فيها.

لم يعد يتحرك. تتوقف أنفاسه، وقد أغمض عينيه استعداداً للموت. تحدق فيه. تبكي وتقول:

- لقد كانت متعة خانقة.

يسترد أنفاسه، لا يقول شيئاً. تقول:

- كما هو الحال معك.

يبكي منتحباً، ويمارس هواه بنفسه. وبناءً على طلبه تتفرج عليه وهو يقوم بذلك. يستدعي رجلاً، يتوسل إليه أن يأتي، أن يأتي قريباً منه في

اللحظة هذه التي يهنأ بها الآن لمجرد تصور عينيه. مثلما تنادي هي على الرجل، وتسأله أن يأتي، وتقف قبالته قرب فمه، وعينيه، كل ذلك في صفير صرخاتها، وتوسلاتها، ولكن من دون أن تلمس منه شيئاً، وكأنها تقوم بذلك، كانت قد همت في مغامرة قتله.

وذات ليلة يكتشفها تحدق عبر الحرير الأسود. إنها تحدق بعينين مغمضتين، وتنظر بلا نظر. يوقظها، ويخبرها أنه خائف من عينيها. تقول إنه خائف من الحرير الأسود، وليس من عينيها، فضلاً عن أنه خائف من شيء آخر أيضاً، وربما من كل هذا، على وجه العموم.

تحيد عنه، وتستدير نحو حائط البحر.

- ولأن الصخب كان عبر الحجر، فيمكن القول إنه صخب البحر، وعندئذ فإنه صخب دمنا.

تقول: في الواقع إنني أنظر إليك عبر الوشاح الأسود أحياناً، ولكن ليس ذلك هو ما تتكلم أنت عنه. فما تريد قوله، كما أعتقد، أنك لا تعرفه عندما أفعل ذلك لأن وجهي صار شيئاً مريباً، بين الحرير والموت. لقد أخذت تتعرف عليه، أما هو فأخذ يتيه في عينيك.

تقول: ليس هناك، عندما كانت عيناي مفتوحتين باتجاه وجهك، سوى أن أراك وكأنك فزع مما فعلته أنا، ويحدث هذا عندما أنام.

تضحك. تقبله وتضحك.

- ليس هو من رأيته في الليل في أحلامك.

يتوقف الضحك. تتفحصه وكأنها قد نسيته. تقول:

- حقاً، ليس هو حتى الآن. فضلاً عن ذلك ليس هو الشخص المعني. فما يزال هناك متسع من الوقت لاستذكار الأمور المهمة في الأحلام.

تسأله عن لياليه التي عاشها. يقول إنها متشابهة دائماً وأنه جال الأرض كلها بحثاً عن هذا العاشق. وكما هو بالنسبة إليها، لم يتجل بعد في الليل. ويسألها إن كانت قد بدأت تنسى. تقول:

- ربما قسمات الوجه، ولكن لا العيون ولا الصوت ولا الجسد.

وهو هل بدأ ينسى؟

كلا. يقول: المسألة تتعلق بصورة ثابتة ستبقى هناك حتى يحين موعد انصرافك.

هي ممددة في مساحة اللون الأصفر الذهبي بشكل مستقيم، يقول الممثل، نهداها خارج جسدها، جميلان، ومقدودان من مرمر أبيض.

وإذا ما تكلمت، يقول الممثل، فإنها ستقول إذا كانت قصتنا قد مثلت على المسرح، فيجب أن يأتي ممثل في الحال إلى ضفة النهر، إلى حافة الضوء، على مقربة منكم ومني أنا الذي أكون إلى جنبكم. ولكن عليه ألاّ يرى غيركم أنتم، ولا يتكلم إلاّ إليكم وحدكم. يجب أن يتكلم مثلما تتكلمون أنتم إذا كان لا مناص من أن تفعلوا ذلك، بهدوء، وبلا ضجة، وكأنه كان يقرأ أدباً إذا صح القول، ولكن ذلك الأدب من النوع الذي يجب أن يغفل باستمرار إثارة الانتباه الذي يجب أن يؤدي إلى تجاهل حضور المرأة في المشهد.

خمدت العاصفة والريح، والبحر بعيد. وكان العابرون قد بدأوا يتوافدون. وفي هذا المساء جاء عدد من الفرسان.

ومذ وصلت هي إلى هناك، يخرج كل ليلة من الغرفة، ويمضي إلى مقهى الرصيف، يتفرج. وأحياناً يذهب إلى الشاطئ.

يبقى هناك حتى اختفاء العابرين.

وعندما يعود، فهي لا تنام، لأنه يعلن بعض الأخبار. لقد هدأت الريح، ومرّ هذا المساء عدد من الفرسان بمحاذاة البحر. هي تعرف الفرسان، تفضل أن يكونوا من أنسال هندية، يمضون هناك لغاية في أنفسهم ولا مناص أن يفعلوا ذلك على قدر عزمهم. وهؤلاء الفرسان لا يشكلون جزءاً من العابرين.

يشرعان في البكاء، تخرج الشهقات من جسديهما، وكأنهما قد شربا. وهي على مقربة منه، إلى حد أنها كانت لصق جلده. إنهما في سعادة لا يعرفانها بعد، السعادة في كونهما معاً أمام العاصفة الساكنة. وسيّان كان الضحك أم البكاء. كان يريدها أن تبكي كما يبكي هو، كان يريد من الشهقات أن تخرج من جسديهما من دون أن يعرفا السبب. يبكي طالما يطلب منها ذلك، ويكتشف أنه لم يبك ما يكفي طوال حياته، وكان ينبغي أن يلتقيا لتحقيق ذلك.

تقول إنهما لم يعودا مجهولين إلى هذا الحد من بعضهما بعضاً الآن وقد كان يتحدث عن البكاء. تتمدد.

يبكيان مثلما يتحابان. ويقول إن ذلك يساعده على تحمّل حضورها في هذه الغرفة، أي فكرة أن امرأة تنتظر رجلاً من المدينة.

على الممثل أن يقول إنه خلال المشهد، يجب أن ينخفض الضوء لمرة واحدة، وأن تتوقف القراءة.

وعلى الممثلين أن يغادروا مركز المسرح وأن يذهبوا إلى عمقه، هناك حيث يجب أن توجد الطاولات والكراسي والمقاعد والأزهار والسجائر وغرافات الماء. وفي البداية عليهم أن يظلوا هناك من دون أن يفعلوا شيئاً، وأن يغمضوا عيونهم، ورؤوسهم مترنحة على الكراسي، أو أن يدخنوا، أو أن يمارسوا تمارين تنفس أو أن يشربوا قدحاً من الماء.

وبعد أن يتغطى الجسد بثوب، على البطلين أن يبقيا من دون حراك، ويخيم عليهما السكون مثلما يخيم على الممثلين.

وبسرعة يستحوذ عليهم جمود شامل، وعلى المشهد الذي صار أزرق – بهذه الزرقة البنية الناتجة عن دخان السجائر في شبه الظل. إن ذلك يعني استراحة، واستعادة القوى عبر الاستغراق في الصمت. وعليه يبدو أن أحداً هناك مايزال يصغي للحكاية في حين يفترض أن قراءتها قد توقفت. وعلى امتداد هذا الصمت، فإنه ينبغي قياس مدى القراءة التي تم أداؤها لفظاً وسماعاً على حد سواء.

يجب أن يبقى المسرح جامداً في النوم لمدة خمس دقائق، وأن يشغله أناس نائمون. والنوم نفسه هو ما ينبغي أن يكون المشهد. يجب أن نسمع موسيقى، ربما كلاسيكية، وسنتعرف عليها لأنها من المفترض أن تكون قد عزفت وسمعت قبل المشهد بل وقبل ذلك، خلال الحياة. يجب أن تكون بعيدة وألاّ تعكر صفو الصمت، بل على العكس من ذلك تماماً.

وستتم العودة إلى اللعبة اعتباراً من صعود الضوء، وانتهاء بالموسيقى. وعلى الممثلين الآخرين أن يعودوا إلينا، وعليهم أن يقوموا بذلك بشكل بطيء.

لم يكن الجو بارداً في رصيف المقهى.

السماء ملبدة بضباب شفيف. إنها أكثر صفاءً من الرمل، ومن البحر. ومايزال البحر في الظلام، وهو قريب جداً، يلعق الرمل، ويلتهمه، وهو عذب ونهري.

لم يره يقترب.

إنه قارب نزهة، أبيض، وجسوره مضاءة وفارغة. أما البحر فهادئ تماماً، وقد طويت الأشرعة، وسرعة المحرك البطيئة خافتة، وبخفة النوم، يتقدم على الشاطئ، يمضي باتجاه القارب، وقد لمحه بنظرة خاطفة، وكأنه يخرج من ظلمة، ولم يره إلاّ حينما صار قبالته.

ما من أحد غيره على الشاطئ، وما من أحد غيره يرى القارب.

يستدير القارب ويمر بكامل جسده، وكأن ذلك يشبه مداعبة لامتناهية، أو يشبه الوداع. وقبل أن يصل القارب إلى الممر المائي بوقت طويل، يعود إلى مقهى الرصيف ليتابعه بعينيه بشكل أفضل. لم يسأل نفسه عما يفعله هذا القارب هناك. يبكي. وبعد أن مر، يستمر في البكاء أسفاً.

لقد رحل الشاب الغريب ذو العينين الزرقاوين والشعر الأسود إلى الأبد.

بعد أن يعود إلى الغرفة، يكون قد مضى وقت طويل. وعلى حين غرة كان يتمنى ألا يأتي إلى أي مكان. لقد ظل جسده ملتصقاً بحائط البيت الخارجي متشبثاً بالحجر، ظناً منه أن بوسعه عدم الدخول إلى أي مكان. فيدخل.

ها هو عطر الرجل الآخر.

أما هي فهناك، في جحيمها الخاص، وقد غمرتها هذه الرائحة المخصصة للعشاق.

يتمدد قربها، وقد هدّه التعب، ثم لم يعد يتحرك، وهي لم تكن قد نامت. تمسك بيده. كان عليها أن تنتظره، لكنها كانت تتألم. تحتفظ باليد، فيتركها لها. ومنذ عدة أيام لم تنسحب يده حينما تمسك هي بها. تقول إنها كانت تتصور وكأنها في مقهى الرصيف، وكأنه لم يرحل بعيداً عن البيت مثلما حدث في تلك الليلة. تقول إنها لم تبحث عنه في تلك الليلة، فقد تركته يرحل، وتركته يموت تماماً: لم تقل لماذا، ولم يسع هو إلى فهم ما تعنيه، ولم يرد. يبقى يقظاً لمدة طويلة. تراه يدور في الغرفة، يحاول الهرب، الموت. لقد نسيها، وهي تعرف ذلك. عندما تغادر الغرفة، يكون هو قد نام على الأرض مباشرة.

لو أنها تكلمت، يقول الممثل، لقالت: لو مثلت حكايتنا على المسرح لذهب الممثل إلى حافة المسرح، إلى ضفة نهر من الضوء، إلى مقربة منكم ومني، ولارتدى الملابس البيضاء، ولكان في تركيز هائل من اليقظة، ولكان مهتماً بنفسه إلى أقصى درجة، ولاتجه إلى الصالة كما يتجه إلى ذاته. عليه أن يقدم نفسه كبطل للقصة، البطل، لنقل ذلك، في غيابه المركزي، وفي خروجه عن الذات بشكل لا يستعاد، ولنظر، كما تميلون إلى ذلك، باتجاه الخارج من الجدران، وكأن ذلك كان ممكناً، باتجاه الخيانة.

وهو في مقهى الرصيف، يكون النهار قد بدأ للتو.

العابرون على ضفاف البحر.

لم يكن قد حدثها عن القارب الأبيض.

الناس العابرون يصرخون بكلمات مختصرة، بصوت حاد، ويردد البعض هذه الكلمات، ثم يولون الأدبار، تحذيرات من دون شك، وأوامر تحذير، والشرطة تجول.

بعد الصراخ لم يبق سوى ضجيج الليل.

يعود إلى الغرفة، وتكون هي هناك. وراء ثخانة الجدران، ينسى وجودها إلى حدّ ما في كل مرة يعود فيها من البحر.

وبعيداً في النوم كان عليها أن تسمع أن أحداً ما يفتح الباب، وتختفي الضجة. عليها الآن أن تسمع أن أحداً ما يغلق الباب بهدوء، ومن ثم فإنه يمشي، وقع خطواته على الأرض، ويجلس على طول الحائط، عليها أن تلمحه أيضاً. بقايا لهاث بعد جهد، ومن ثم فما من شيء سوى ضجيج الليل الذي تخنقه الجدران.

ربما ليست نائمة. وهو لا يريد إيقاظها، يمتنع عن ذلك. يحدِّق فيها. الوجه في مكان آمن، تحت الحرير الأسود، ووحده الجسد العاري تحت الضوء الأصفر، ممدد مثل شهيد.

في حوالي هذه الساعة، ومع عودة النهار، تحدث المأساة أحياناً. يلمحها تحت الضوء الأصفر، ويود ضرب الجسد الذي ينام نوماً كاذباً، والذي يعرف كيف يتمرد، ويسرق النقود.

يقترب منها، يتأمل مقطعاً من العبارة التي تحثه على قتلها، هناك، في أسفل الرقبة، وفي ثنايا القلب.

كانت العبارة البارزة على القارب، وأيّاً كان المعنى، تشير إلى الموت.

يتمدد قربها، وقد سقط الحرير الأسود على الكتف، تنفتح العينان، وتغمضان، فتنام ثانية. تنفتح العينان، كأنهما كفيفتان، في مدة من الزمن، ولكن من أجل لا شيء، من أجل أن تنغلقا ثانية وتستأنفا السفر نحو الموت.

ومن ثم، في آخر الليل، بقيت العينان مفتوحتين.

لا تتلفظ بالعبارة التي ينتظرها كي يقتلها. تنتصب. تصغي وتسأل:

ماذا أسمع، ما هذا؟

يقول إنه صخب البحر وصخب الريح وهما يتصادمان، وأصداء أشياء بشرية لم تسمع من قبل، ضحكات وصراخ، ودعوات كانت قد أطلقت من طرف إلى آخر من الزمان، عندما لا يعرف أحد شيئاً، وهي، في هذه الليلة، يجب أن تبلغ الشاطئ الذي هو هناك، أمام الغرفة.

لم تعجبها هذه القصة، فتعود إلى النوم.

لم تر القارب بوضوح، ولم تسمع هديره. إنها تجهل كل شيء عن القارب، لأنها، وبكل بساطة، كانت نائمة عندما مرّ. وبكثير من البراءة جعلته يتناول يدها ويقبلها.

لا تدري أنها صارت تلك التي لا تعرف القارب. ومع ذلك، فهي كانت تميل في السابق إلى التكهن ببعض الأمور المتعلقة باقتحام هذا القارب لحياتهما، وعلى سبيل المثال، فإنها لم تشعر بهذا الاقتحام عندما يقّبل يدها.

في هذه الليلة، ستنام فور وصولها.

لن يعكر صفو نومه، سيترك الأمور تسير كما هي.

لن يسألها إن كانت قد التقت برجل المدينة مرة أخرى، وهو يعلم أنها التقت به، بما يدل على ذلك من شواهد، فضلاً على حداثة الرضوض والكدمات على نهديها، وذراعيها، ولا يخفى عليه ذلك، من شيخوخة وجهها ونومها الخالي من الحلم، وشحوبها، ومن هذا التعب المنيع في آخر الليل، ومن هذا اليأس وهذه التعاسة الجنسية، من كل هذا الذي جعل من العينين قادرتين على رؤية العالم.

لقد ترك الباب مفتوحاً، وكانت هي نائمة. لقد رحل، عبر المدينة، والشواطئ، ومرسى اليخوت بجانب الصخور.

يعود في منتصف الليل.

هي هناك، جانب الحائط، واقفة، بعيدة عن الضوء الأصفر، مرتدية ملابسها استعداداً للرحيل. تبكي. لم تستطع إيقاف نفسها عن البكاء. تقول: لقد بحثت عنك في المدينة.

لقد كانت خائفة. فقد رأته ميتاً. لم تعد ترغب في العودة إلى الغرفة.

يسير مقترباً منها، وينتظر. يدعها تبكي وكأنه لم يكن هناك أي سبب للبكاء.

تقول: حتى عن هذه الآلام، والأشواق التي تقول إنها تقتلك، أنت لا تعرف شيئاً، تقول: أن أعرف عنك، يعني عدم معرفة أي شيء إطلاقاً، وحتى عنك أنت، فأنت لا تعرف شيئاً، حتى وإن كنت نائماً أو بردانا.

يقول: حقاً، أنا لا أعرف شيئاً.

تردد: أنت لا تعرف. أن أعرف كما تعرف، فهو الخروج في المدينة والاعتقاد دائماً أن المرء يعود للتو، إنه التشبه بالموتى والنسيان.

يقول: حقاً بالنسبة إلى الموتى.

ويقول: الآن أحتمل حضورك في الغرفة حتى عندما تصرخين. يبقيان هناك، صامتين، وتمضي مدة طويلة بينما يبزغ النهار. ومع مجيء النهار، تنفذ البرودة، يتغطيان بالشراشف البيضاء.

تقول له إن الرجل الآخر هذا يسألها عن الغرفة أيضاً. وتقول: أنا، في أثناء العودة، أفعل ذلك أيضاً، أسأله من أين لك أن تعرف عن نفسك ولو قليلاً. أنت تجهل ما تفعله إلى هذا الحد، ولماذا تفعل ذلك. لم وضعتني في هذه الغرفة. ولماذا تريد قتلي في حين كنت في ضوء هذه الفكرة أشد خوفاً. قال لي إن ذلك لا أهمية له، وإن الناس جميعاً كانوا مثلك تقريباً، وإن الشيء الوحيد الذي يشكل خطورة، هو أنني كنت أمامك.

لقد قالت له إنها كانت تستطيع أن تمني نفسها بهؤلاء الرجال أيضاً، وإنها تتوق بشكل أقل لهؤلاء من توقها لهؤلاء الرجال، ولكن ربما كان الحب هو الوحيد، الأكثر فرادة، والأكثر نقاءً، في مأمن من الرغبات الأخرى ومن أخطاء اللقاء. وإن التعاسة في أن تكون مرفوضاً، أصبحت قريبة من المعقول في حالات خاصة من الحياة، حالات الاشتهاء بالضبط التي حملتها في أعماقها هذا الصيف.

لقد تبدد الغضب. امتدت يداه إلى وجهها وأخذ يداعبه. وكانت قد وضعت الحرير الأسود على وجهها تعبيراً عن الاستسلام. تقول:

- لو أنك لم تعد، لذهبت مع الناس الذاهبين إلى الكتل الصخرية مرة أخرى، ليلاً، لأكون معهم، من دون أن أعرف لماذا أذهب ولماذا أعود، أتأملهم وهم يضعون قضباناً في أكف الفتيات الصغيرات ويبكون بعيون مغمضة.

تقول:

- ما من شيء يأتي من خارجك أو خارجي لكي يعلمنا.

- أيةّ معرفة وأي جهل؟

- أياً كان ذلك، فهنالك أناس هم هكذا، منغلقون، لا يمكنهم أن يتعلموا من أحد، فنحن على سبيل المثال لا نستطيع أن نتعلم أياً كان ذلك الأمر، لا أنا أستطيع أن أتعلم منك ولا أنت تستطيع أن تتعلم مني، ولا من أي شخص آخر، ولا من أي شيء ولا من أي أحداث. يا للبغال.

ومهما كان عدد القرون التي ستخفي نسيان وجودهم، فإن هذا الجهل سيبقى قائماً وكأنه يقع في هذه اللحظة بالذات، أو في ذلك العهد، في هذا الضوء البارد، فيكشفون عنه (النسيان) وهم سعداء به.

وكما هو الحال خلال ألف سنة، ستأتي ألف سنة أخرى بدءاً من هذا اليوم، يوماً إثر يوم. فإن هذه الجهل بالأرض بأسرها وما يقولون عنه اليوم، سيوضع له تأريخ، من دون كلمات، ومن دون حبر للكتابة ومن دون كتاب للقراءة، سيحدد تأريخه، وهم سيكونون سعداء بذلك.

تقول: وهذا كل ما حدث هناك، في الغرفة. وتؤشر بيدها وهي منبطحة على الأرض المبلطة، إلى الأغطية، والضوء، والأجساد.

تنام نوم فتوة، نوماً عنيداً وساكناً.

لقد أصبحت تلك التي لا تعلم سوى أن القارب قد مرّ.

يفكر: مثل طفولتي.

يرفع الحرير الأسود من فوق الوجه أحياناً، وبالكاد يتحرك الجسد، وهو يدرك جيداً لو أنه فعل ذلك، فلن يكون قادراً على انتزاع النوم.

يختفي نمش الصيف إلى حد ما من على الوجه. يحدق. ويحدق بإمعان، كما هو الحال في كل مساء. يغمض عينيه أحياناً كي يبعد الصورة، ويجمدها في تصوير العطلة مع آخرين مثله. ولكن كان الأمر متأخراً للغاية في فصلها عن حياته من دون شك.

وحدها في الغرفة بجسدها فارع الطول، الملتف بالأغطية البيضاء. وما أن تنفصل عنها، حتى تظهر هيئة غريبة تجلس على الأرض، تضع رأسها على الذراعين الملتفين، اللذين يخفيان العينين. وعلى مقربة منها هيئته، وقد تمدد، بعيداً عن الأغطية، وبعيداً عنها. لقد بقيا على هذه الحال، حتى طلوع النهار، بين بكاء ونوم وضحك، وعودة إلى البكاء، والحياة، والموت.

تقول: هذه المصاعب التي تعاني منها أنت هي دائماً ما أواجهها في حياتي، منقوشة في أعمق أعماق سعادتي مع الرجال الآخرين.

يسألها عن أي شيء تتحدث. تتحدث عن هذه الاستحالة، وعن هذا النفور الذي أوحته له. تقول إنه قرف من نفسها هي بالذات، تشاطره إياه. ومن ثم لا، إنه ليس القرف. كلا، لقد كان هناك من ابتكر القرف.

هي، هي تظن أن هذا الشيء الذي حدث في هذه الغرفة، مثله مثل ما حدث في مكان آخر، هذا الحدث الكوني الذي لم يستطيعا معرفته، والذي لن يعرفاه أبداً، والذي كان ربما مختفياً وراء متشابهات مع أشياء أخرى ولكن إلى حد أن شخصاً، وإن كان على يقين تام، لن يكون بوسعه أن يفصل نفسه عن الكينونة على اعتبار أنها معطى عام للرجل.

كل الرجال؟ يسأل.

الجميع. وتضيف: أنت على صواب.

يتمدد في بركة من الأغطية البيضاء وسط الغرفة. وبدورها تحدق فيه. تدعوه. يبكيان. يعود الهدوء إلى البحر، وإلى الغرفة. تقول إنها تحبه بشكل يفوق تصوره، وإنه يجب ألاّ يشعر بالخوف.

يسألها إن كانت قد التقت برجل المدينة ثانية.

لقد التقت به.

هذا الرجل الذي يرتاد هذه الحانات التي تنفتح أبوابها متأخرة بعد الظهيرة، حانات بلا نوافذ، وأبوابها مغلقة. إذاً ينبغي الطرق على الأبواب من أجل الدخول. هذا ما تعرفه عن هذا الرجل، الذي يفترض أن يكون غنياً ولا يعمل كذلك. يمضيان إلى الغرفة في أحد الطوابق، التي حجزت لبعض أناس هو من بينهم.

تذهب، في أحيان كثيرة، إلى غرفة مؤجرة من قبله في فندق، وتبقى فيها حتى المساء. تخبره أنها قدّمت ضماناً للفندق الذي تسكن فيه كعادتها أثناء الصيف، وقد وفر ذلك أماكن عديدة. تقول:

- وفي نهاية المطاف، وقعت في خطأ.

لم يضحك.

رفعت الحرير الأسود. أخذ كل منها ينظر إلى جسده. لقد نسيت أن هذا الجسد هو جسده، فتتأمله كما يفعل هو ذلك.

يسأل عن الرجل الآخر.

تقول إنه يضرب أيضاً. يتفحصان مواضع من جسدها تلقت ضربات هذا الرجل الآخر. تقول إنه يحبه ويشتمه بالكلمات ذاتها، وهذا هو ديدنها مع الرجال؛ حيث تطلب منهم ذلك في الغالب. ولكن لا يحدث ذلك دائماً

بالطريقة ذاتها. تقول: بينك وبينه. يسألها أن تعيد لفظ الشتائم. تفعل ذلك. يحاول صوتها أن يكون محايداً، وموضوعياً. يسأل عما يقوله أيضاً. تردد:

- يقول ما من شيء يمكن مقارنته، جملة وتفصيلاً.

يسأل عن أي شيء يتحدث هكذا. تقول: عن الشيء الداخلي. وهذا ما يعتقده، وهو يظن أنه يتحدث عن ذلك. وهو، رجل المدينة هذا، يسمي الشيء الداخلي هذا موضع التمتع. يدخل بكثير من المعرفة والجنون. يجب أن يستمتع. ويحب بجنون أيضاً. من الممكن أن يجرب شعوراً محدداً إزاءها، شعوراً بسيطاً بلا عاقبة، ولكنه لا يخلطه مع رغبة جسده. لن يتحدث عن ذلك مطلقاً. وبدلاً من ذلك، يقول إنه يشعر بالخوف دائماً من جمالها في هذه الغرفة المعتمة التي تحكي له فيها، والتي تفقد فيها الزرقة الخرافية. يقول إنه من عينيها تنساب عذوبة بشرتها. تقول إنه يضرب أحياناً بسببه، بسبب هذا الرجل الذي ينتظره في الغرفة. ولأنه برغبة الاستمتاع يضرب، فإنه برغبة القتل يبدو وكأن الأمر طبيعي. تعلم أنه يذهب إلى الكتل الصخرية. تقول إنه يقلب صفحات حكايتها في هذه اللحظة، وإنه يذهب إلى الكتل الصخرية للبحث هناك عن فتيات صغيرات. تقول: إنه يذهب هكذا متحملاً العذاب ليأخذني في المساء إلى الغرفة في الفندق.

تقول إنها حقاً تريد منه أن يكلمها عن دوره فيما حدث لها. يقول لم يحدث لها شيء أبداً. كانت تلك فكرة. تقول إن الأمر سيّان. لم يرد، ولا يعرف كيف يرد.

يقول هذا الرجِل إن الذي يثير الاشتهاء هو الرأس الذكي، فبدونه لا يعرف الجسد شيئاً.

تقول له إنها تمنحه كل ما روته له للتو، ليصنع من ذلك ما يشاء في الليل حينما يكون وحده.

تقول هنالك شتائم عديدة يستخدمها هذا الرجل بشأن بعض النساء تبدو وكأنها نابعة من ثقافة عميقة.

يسأل عما تفضله. لم تقل هذا أو ذاك. تقول:

- تكرار الشتيمة في اللحظة المحددة التي نطقتها فيها للمرة الأولى، عندما تجلى العنف من دون أن يعرف المرء بعد ما ستؤول إليه الأمور.

تنهض وتضيء مصابيح الغرفة، وتضطجع في مركز الضوء، مع الأغطية التي سحبتها. تتمدد، وتغطي وجهها. في البدء تسكت، ثم تتكلم.

تقول:

- نحن لا نعرف شيئاً،لا أنت ولا أنا، فجلّ ما نعرفه، هو هذا الفرق، وهذا العائق الذي ابتليتني به، فهو هنا من أجل أن يخفي شيئاً له سمة الحياة.

في المساء على حافة المسرح والنهر، على الممثل أن يقول، إنها يجب أن تقول: يجب إجراء عملية تشبه تغيير مجموعة من الممثلين. كما اشتهر به مستخدمو وعمال المقاهي، والغواصات، والمعامل. يتدفق الممثلون بحركة صامتة، ورشيقة، وعلى الممثلين الجدد أن يكونوا في وضع وكأنهم وصلوا عصراً. لم يرهم أحد بعد، والجميع يجب أن يشبهوا هذا الرجل البطل.

هم هؤلاء الذين يجب أن يقتربوا منها، ومن جسدها المضطجع داخل الأغطية، كما هو الحال الآن، بوجهها المغطى بالحرير الأسود. وهي، وهي التي كان عليها أن تفقده، لم تعد تتعرف عليه بين هؤلاء الممثلين الجدد. إنها

يائسة من ذلك. يجب أن تقول: أنت قريب جداً من الفكرة العامة للرجل، ولهذا لا يمكن نسيانك، ولهذا السبب جعلتني أبكي.

ينام.

منذ أيام عديدة يستسلم للنوم بكل بساطة، بعدم ثقة وأقل وطأة. في الأيام الأولى، كان يذهب لينام في البيت المغلق غالباً. أما الآن، فعندما يعود من مقهى الرصيف، يحدث له أن ينام أمامها، ولا يصرخ حينما تقترب منه.

يستيقظ، ويقول كمن يبحث عن تبرير لنفسه:

- إنني متعب، وكأنني أحتضر.

تقول لا أهمية لذلك، فذلك بسبب إحياء الليل المثير للتعب، وأن عليه أن يدرك النهار عاجلاً أو آجلاً، والتقليل من ساعات الليل.

يحدق فيها، ويقول:

- الوشاح الأسود ليس معك.

كلا، لم تضعه لكي تتأمله في الوقت الذي ينام.

تتمدد قربه. يستيقظان معاً. لا أحد يلمس الآخر، حتى ولو بالأصابع. يسألها كيف كان ذكر ذلك الرجل في الكتل الصخرية. تقول إنه يشبه شيئاً ما من بداية العالم، خشناً وقبيحاً، وإنه كان يتحجر في حالة الرغبة، وهو ممتلئ وصلب دائماً، ومؤلم مثل جرح. يسأل إن كانت الذكرى مؤلمة. تقول إنها كانت تنبع من عذاب حي ولكنها غامضة خلال الوجد الذي تحمله في صخبها، فيصبح الوجد وجداً، ولكنه منفصل ومختلف.

ينتظرها تنام. يقرّب جسده من جسدها، فيصبح لصقها. يبقى هناك. تفتح عينيها برهة من الوقت لتتعرف عليه ثم تنام ثانية، وهي على علم بأنه

يحدق فيها ليلاً في أغلب الأحيان ليأنس بذلك، وعلى وجه الخصوص أثناء العودة من رؤية رجل المدينة، عندما تنام نوماً منهكاً.

جسده، إزاء ذاته، دافئ. لايزال إلى جوارها، جسده يلامس جسدها، ساكن، في نعمائه، يعم الدفء الجميع، فيطال البشرة والحياة الداخلية.

هذا رجل لا يسأل لماذا في هذا المساء، بوسعه أن يتحمل هذا الجسد القريب جداً من جسدها، فهو من لا يسأل على الإطلاق عن سبب حالتها، وهو من ينتظر التحول، والنوم، وهو الذي ينتظر الليل كذلك، والنهار والبهجة. وهو من يجد نفسه قريباً منها فجأة، من دون أن يكون قد اتخذ قراراً بذلك، منشغلاً عنها، خارج حيطانه.

سينقلب، وسيغطي جسدها بجسده، سيجتذبه إليه، في محوره، ثم ينزلق ببطء في وحل المركز الحار.

ويبقى هناك من دون حراك، بانتظار قدره، وإرادة جسده، إنه بانتظار اللحظة المواتية.

عندما يفكر بذلك، تقدح الفكرة، عنيفة، في صرخة احتضار. تتوقف، في سقوط جسده البطيء على طول جسدها، فتدوّن الصرخة، باختصار شديد، متوقفة في الهيجان، ومذبوحة بالتالي.

سيبقى هناك، ثم يستدير نحو الحائط إلى الأبد. وسيكيل الشتائم، ولن يبكي.

تبقى هي تحت الضوء الأصفر، لا تحدق فيه، لقد نسيته. يبقيان في صمت مدة طويلة.

يقول لها لماذا هذا الأمر غير ممكن.

وهي لم تعد تعرف كيف يكون ممكناً. تقول إنها لا تشعر برغبة لشخص ما، فليتركها وشأنها.

يقول: ربما هذا المكان، وهذه الغرفة هي التي سرقتها منه. كلا ليست الغرفة، لا تصدق ذلك. إنها تؤمن بالله، وهو يشيّد معسكرات الاعتقال، ويعلن الحروب. تقول: ينبغي الكف عن ذلك.

تناديه، وتبكي

تنهض، وتمشي في الغرفة.

تقول ربما هو البحر الذي لم يغادرهما، والذي هو هنا دائماً بكل صخبه، والمستعد في أحيان كثيرة للهرب، وهو هذا الضوء الكابي والمشؤوم، وتباطؤ النهار لبلوغ الفردوس. هذا الإبطاء الذي يحملانه على ما تبقى من العالم بهذا الحب.

تتفحص ما حولها في الغرفة. تجهش بالبكاء، بسبب هذا الحب، تقول. تتوقف ثانية. تقول إنه لمن المرعب العيش كما يعيشان. تنهض أمامه، فجأة. تصرخ لم يعد أحد بوسعه أن يقرأ في البيت، بل، لا توجد هناك أشياء للقراءة، فقد رمى الكتب والمجلات والصحف، ولم يعد هناك جهاز تلفزيون أو راديو، فالمرء لا يعرف ما يجري في العالم، بل لا يعرف ما يدور حوله عن قرب، إنها لم تعد تعرف. إن العيش كما يعيشان، هو الموت في أحسن الأحوال. تتوقف ثانية أمامه، تحدق فيه. تبكي. تردد: بسبب هذا الحب الذي استولى على كل شيء والذي لا يطاق.

تتوقف. وكان يصغي إليها. لا يضحك. يسأل:

- عم تتكلمين؟

تقول، وهي مضطربة:

- لقد تكلمت بلا تفكير. إنني متعبة.

تقول: أنا لم أطرح السؤال مطلقاً.

ينهض، يرفعها نحوه، يقبل فمها. الرغبة في الهزيمة مجنونة، يرتجفان.

ينفصلان. يقول:

- حتى هذه اللحظة لم أكن أعرف.

يبقيان واقفين في الغرفة، وعيونهما مغمضة، بلا كلام.

في ساعة محددة من ساعات الليل، لم يعد هناك أي صخب حول البيت. يسمع المرء، عند جزر البحر على هذه المسافة من الغرفة، ضربات الموج المتلاطم وهي تبتعد وحسب، من دون أي صدى. وفي هذه الهدنة لم يعد هناك أي نباح كلاب ولا قعقعة شاحنات.

فبعد أن يمر آخر العابرين من الناس في النهار، وحيث الساعات تخلو من كل أثر كي تصبح فضاءات عارية ورمالاً للعبور الخالص، عندئذ تكون ذكرى القبلة قوية جداً، تحرق دمهما، وتجعلهما لا يتكلمان ولا يقدران على فعل أي شيء.

في هذه الساعة من الليل تتحرك كالعادة. أمّا اليوم، فلا. إنها تخشى من دون شك اقتراب النهار وما تصاحبه من سكينة.

لقد صارت القبلة هي المتعة. هذا ما حدث. لقد كان يتسلى بالموت، ورعب الفكرة. ولم تتبعها أية قبلة أخرى. إنها تحتل الرغبة كلها. إنها صحراؤه ولانهائيته وروحه وجسده.

وها هي في بركة من بياض الأغطية، وفي متناول يدها الوجه المكشوف. تجعل القبلة من جسديهما أكثر اقتراباً مما يفعله العري والغرفة.

وها هي، تستيقظ، وتقول:

- أكنت أنت هنا؟

تتفحص ما حوله، الغرفة، الباب، وجهه، جسده.

تسأله إن راودته فكرة قتلها هذه الليلة. يقول:

- لقد راودتني الفكرة، ولكنها مثل فكرة الحب.

لن يتحدثا عن القبلة.

وهي في بداية نومها.

يخرج ويمضي باتجاه معاكس من الكتل الصخرية، على امتداد الفنادق الكبيرة التي تطل على الشاطئ.

لم يرجع من هناك مطلقاً، خشية أن يكون معروفاً من قبل شهود كونه كاتب فضيحة حقيقي - يتصور ذلك الآن - كانت قد حدثت في مساء هذا الصيف. يعثر على المكان الذي كان فيه قرب النافذة المفتوحة قبالة نافذة الشاب الغريب ذي العينين الزرقاوين والشعر الأسود. كانت الصالة مغلقة من كل الجهات. الأثاث إنجليزي، والمقاعد والطاولات من خشب الأكاجيو الداكن، وهنالك كثير من الأزهار المصفوفة في هذه السكينة في مأمن من الصخب والريح. وهو يتخيل حقاً رائحة الأزهار الحبيسة، هذه الرائحة التي صارت فاترة بسبب حرارة الشمس.

خلف زجاج الكوى، وفي الصمت نفسه، تتحرك السماء ويتحرك البحر.

يريدها، هي، امرأة المقهى المطل على البحر. فهو لم يقبلها منذ ذلك المساء. وقبلة فميهما كانت قد سرت في كل أنحاء جسده. إنه سجين فيها بقضه وقضيضه، كسرّ مطلق، وسعادة من تلك التي ينبغي أن يضحي بها خوفاً من أن تمتلك صيرورة. هذه هي فكرة القبلة التي تقوده إلى فكرة موته. كان بوسعه فتح الصالة والموت هناك بأية وسيلة، أو النوم في حضن الدفيئة.

عندما يدخل، تكون هي هناك، في مكانها، متمددة.

تحدق فيه من دون أن تراه. عيناها فارغتان، وهي في حالة غضب لم تألفها، صماء شريرة. تقول:

- تريد أن تتصرف بفكرة الإله، وكأنك تريد أن تجعل منها بضاعة، توزعها في كل مكان، صارخة وذاوية، وكأن الله كان بحاجة إلى خدماتك.

لا يرد، إنه رجل لا يرد.

تستمر: عندما تبكي، فإنك تبكي لكي لا تخدع الإله ولا تنتحل أقوال الإله، فتطلب مغفرته.

يتبدد الغضب، والخداع. تتمدد، وتغطي جسدها بالأغطية ووجهها بالحرير الأسود. تبكي تحت الحرير الأسود. تتحدث وهي تبكي:

- حقاً، أنت لا تتكلم عن الإله مطلقاً. تقول: الإله، هو هذا القانون، قانون كل يوم، وكل مكان، وليس من الصعوبة البحث عنه الآن في الليل في أعماقك وأنت تنتقل من جهة البحر.

تبكي، الأمر يتعلق بحالة من الألم العميق والمثبط، الذي لا يؤلم، فالأفضل لها أن تبكي بدلاً من أن تتحدث، والتي يمكن لها أن تفعل ذلك

على المستوى نفسه بسعادة متناهية. وما أن يعرف ذلك، هو، فإنه لن يستطيع الاقتراب منها أبداً.

توقظه.

تقول إنها على وشك أن تصبح مجنونة.

تقول: لقد نمت أنتَ، وكان كل شيء هادئاً. تأملت وجهك، حين كنت نائماً. لقد رأيتك وكأنك تنتقل من رعب إلى رعب طوال الليل كله.

تتكلم، وعيناها باتجاه الحائط، لا تتوجه إليه، وهي قريبة منه بعيدة عن حضوره. تقول: فجأة، في نسيج الكون، في مكان ما من هذه المساحة الصغيرة من وجهك ينبعث وهن مباغت من النسيج، ومن الصعوبة أن يمزق ظفر خيطاً من الحرير. تقول إن جنونها يحصل ربما من جرّاء ليلة أخرى. عندما كان نائماً، كانت قد لمحت – هذا التمايز في المصائر بين هذا الوجه والكون كله في الوقت نفسه – تماثل المصير الذي قدر لهما، لمعرفة أنهما كانا قد أودت بهما معاً وسحقتهما بالطريقة ذاتها، حركة الزمن.

ولكنها من دون شك وقعت في خطأ، فهي لم تعد تعرف أي شيء تتكلم به عندما تتكلم عنه، وعن هذا الإحساس الذي تكنه له، إلاّ أن الشيء الذي هي متأكدة منه، هو أنه ينبغي أن يثير الانتباه خلال الساعات التي تسبق شروق الشمس، بعد آخر العابرين، عندما يكون الليل حالك الظلمة.

ومرة أخرى، في عز الليل، توقظه، تقول إنها نسيت أن تخبره، وأن تروي له: أنها تعرف جيداً ضفاف البحر، وكانت قد شاهدتها طوال حياتها، وهي تعرف هذه الغرفة أيضاً، وكانت قد رأتها، كانت بيتاً مغلقاً بنافذة محطمة. وقيل إن نساء قد جئن إلى هذا البيت في المرات السابقة، وكن في الصيف

يذهبن إلى مقهى الرصيف مع الأطفال. لكنها لم تكن قد رأت النساء والأطفال أبداً، والأكثر من ذلك، أنها تتذكر أنه لم يعد هناك أي شخص في هذا البيت. ثم ذات يوم صار فيه ضوء. كانت تريد أن تقول له هذا منذ زمن، ولكنها نسيت ذلك.

يسألها إن كانت هي التي طرقت على الباب في بعض المساءات.

ربما، نعم. أحياناً تفعل ذلك، فتطرق بعض البيوت، عندما يكون في البيت ضوء وتعرف أن البيوت مسكونة بالرجال وحدهم.

هل هي من طرقت على باب المنزل ذات مساء من هذا الصيف؟ وكان هو لا يفتح. لا يفتح مادام لا ينتظر أحداً. يقطع المكالمة الهاتفية ولا يفتح. هل كان الأمر ممكناً أن تعود هذا الصيف؟ لا تتذكر مجيئها على وجه الدقة. والآن وقد عرفت ذلك، فيبدو لها لا مناص أن تفعل ذلك. منطقياً لا، كان يفترض أن ترى النور عبر زجاج النوافذ، ولكن حتى وإن لم يكن هنالك ضوء، كان بوسعها القيام بذلك في بعض الأحيان أيضاً.

وفي أحيان أخرى، عندما لا ينتظر أحداً، يدع الظلام يغمر البيت، ولا يضع ضوءاً. وذلك من أجل معرفة ما يحدث في بيت فارغ. تقول: بالضبط أنا.

تفتح عينيها، وتغمضهما. تقول وكأننا نمنا في ساعة متأخرة. بيدها تداعب وجهه ثم تسقط اليد، مثقلة بالنعاس. عيناها تغمضان مرة أخرى.

تقول:

- كنت في هذه الليلة مع هذا الرجل، لحقت به إلى الغرفة فوق الحانة. وطلبت منه أن يفعل معي مثلما كان لنا أن نفعل فيما لو قدّر للموت ألاّ يقبض أرواحنا.

في الغرفة، يقترب، ويتمدد بقربها، ترتجف، وتتكلم بصعوبة. وفي كل مرة تتوقف فيها عن الكلام تبكي. تقول:

- لقد طلبت من الرجل هذا أن يدعني أنام قربه مدة كافية. وطلبت منه أن يقوم بأمورِ وأشياء محددة، ولكنه قام بذلك في أثناء نومي وحسب، ولكن بالكاد، بالكاد.

تردد:

- طلبت منه أن يقول لي الكلمات وأن يفعل أشياء أقولها له، ولكن ليقولها ويفعلها بهدوء تام، وبالتفصيل، لكي لا أخرج من النوم. لقد قلت له أموراً كثيرة وكلمات عديدة.

وقلت له أيضاً ألاّ يقلق، رغم أن شغله الشاغل هو عدم إيقاظي، وليس معرفة فيما لو صحوت من النوم، لأنه في هذه الحالة يجب أن تكون الخسارة بطيئة في الإعلان عن نفسها. وكأنها ناتجة عن احتضار طويل الأمد وعجيب.

لقد نفذ ما طلبته منه، بهدوء تام وبالتفصيل، ثم سمعت صوته فجأة، وأتذكر، أن يده أحرقت جلدي.

في البدء كان الأمر صعباً، وبطريقة هائلة، ثم وبطريقة متواصلة، حملت يده جسدي إلى النار.

قال إن أهدابي كانت ترتجف وكأن عيني أرادتا أن تنفتحا وهما لا طاقة لهما بذلك، وإن ماءً غليظاً عكراً قد خرج من أعماق بطني كالدم الحار. وإن ساقيّ ما إن تباعدتا لتسمحا له بالدخول في هذه الأعماق، حتى استيقظت. وقد كان هذا الدخول إلى عمق الأعماق، قد تم بشكل بطيء جداً لبلوغ

ذلك العمق من دون أن تخور قواه. كان يصرخ خائفاً، وكان ينتظر مدة طويلة في عمق الأعماق، حتى هدأت حالته العجلة. تقول:

- لم تكن بي رغبة للانتظار، أيضاً مدة طويلة أكثر من الوقت الذي أراده، طلبت منه أن يمضي بسرعة، وقوة. وكنا قد توقفنا عن الكلام. جاءت البهجة من السماء، فامتلكناها وجعلتنا خامدين، فغيبتنا إلى الأبد ثم ذوت.

في الغرفة، كانت الأجساد غارقة في بياض الأغطية، والعيون المغمضة راسخة في الوجه.

ومن ثم انفتحت.

ومن ثم أغمضت مرة أخرى.

كل شيء كان أمراً مفعولاً. فحولهما كانت الغرفة متهدمة.

على هذا الحال، بقيا، وعيونهما مرعوبة ومغمضة لمدة طويلة.

في البداية ظل كل واحد منهما بعيداً عن الآخر، لكن أيديهما ألفت نفسها خائبة، وهي ماتزال ترتجف. وكانت أن بقيت الواحدة ممسكة بالأخرى خلال مدة النوم.

عند اليقظة، كانا مايزالان ينوحان. وكان نظرهما يتجه نحو الحائط الخجل.

لقد بقيا مدة طويلة وقد انفصل كل منهما عن الآخر وهو يبكي، ثم بقيا هناك مدة طويلة أيضاً من دون بكاء ومن دون حراك.

ومن ثم سألته إن كان هذا الغبش هو إعلان عن مقدم النهار. يقول لها إنه النهار من دون شك، ولكن هذا الوقت من العام بطيء في القدوم، حتى أن المرء لم يكن باستطاعته أن يثق بذلك.

تسأله إن كانت هذه هي الليلة الأخيرة.

يقول نعم، من الممكن أن تكون هذه الليلة هي الأخيرة، لا يعلم. ويذكّرها أنه لا يعلم شيئاً على الإطلاق.

يمضي إلى مقهى الرصيف، ويكون النهار معتماً جداً.

يبقى هناك، يتأمل، ويبكي.

وحينما يعود إلى الغرفة، تكون هي جالسة، واقفة، تنتظره، يحدّق كلّ منهما بالآخر، ويتمنى كل منهما الآخر.

تقول له إنها خائفة أن تكون قتيلة مثل امرأة فندق المرفأ بعد ليلة الانفصال. يقول لها إنها لم تعد تخشى شيئاً، وتعتقد أن الفكرة كانت قد راودته حينما ذهب إلى مقهى الرصيف، وهو يؤكد الأمر. يقول: لا شيء سوى لحظة انبهار.

تبكي. تقول إن الإحساس بمعرفة الحاجة التي تحصل في كل لحظة من قصتهما، والتذكر أن جسدها وبحسب إرادته وحده، كان باستطاعته أن يتلاشى قرب جسده في الغرفة.

يقول إن هذه الفكرة تراوده في كل ليلة في الواقع، ممزوجة برعب البحر، وبجمالها المنيع.

يكلمها عن القارب.

يقول إنه رأى قارباً للنزهة يمضي هناك، قريب جداً، على بعد مائة متر عن الساحل. كانت الجسور فارغة، وكان البحر مثل بركة، والقارب يتقدم على البركة. إنه يشبه اليخت، أبيض. تسأل متى؟ لم يعد يعلم، منذ ليال عديدة.

لم تر القارب على هذا الشاطئ على الإطلاق. ولكن لم لا. أناس تائهون بلا شك، في الضباب - هنالك ضباب دائم في أعالي البحر في هذا الموسم - هم أولئك الذين يمضون نحو أضواء الفنادق البحرية الكبيرة.

لقد بقي على الشاطئ إلى أن اختفى القارب في القنال، وكان هدير محركه البطيء قد نفذ إلى قلبه بطريقة لم يكن يألفها. وهو يعتقد أن رغبة الشاب الغريب صاحب العينين الزرقاوين والشعر الأسود قد ولدت في أعماقه للمرة الأخيرة في هذه اللحظة، عندما ابتعد القارب عن الشاطئ. وكان أن قرر السقوط في الرمل عندما يختفي القارب.

عندما أستيقظ، تماماً بعد اختفاء القارب، بلغ تموج البحر جدار البيت، وقد وصل حتى قدميه وكأنه يتحاشاه، كان مزيناً بالبياض، بهياً، مثل خط الكتابة. لقد أدهشه وكأنه كان رداً يتلقاه من القارب. الرد الذي يقول إنه لم يعد بالإمكان انتظار الشاب الغريب ذي العينين الزرقاوين، وأنه يجب ألاّ يعود ثانية إلى شواطئ فرنسا مطلقاً.

في هذه اللحظة، لحظة البحر النهري الذي كان يكن له الحب برغبة مجنونة، تبادلا تلك القبلة الوحيدة. عاودته ذكرى بشرتها وعينيها ونهديها وكل شيء من جسدها، وحتى عطرها ويديها.

لقد بقي في هذا الحال من التوق والاشتهاء، أياماً عديدة، وليالي طوال، ثم عاوده الحب - مثل ذكرى القبلة - ذلك الحب الذي كان مثل دم لحياته، وهو الذي أرعبه في ذلك المساء الصيفي حينما تقابلا في المقهى على شاطئ البحر. تقول كان هو هذا الحب، إنه الحب الذي تمنياه في ذلك المساء، والذي كان يمثل إخلاصهما الحقيقي، كل منهما للآخر، وهذا يحدث بعيداً عن حكايتهما الحالية وحكايتهما القادمة في مجرى حياتهما.

يقول لها إن الشاب الغريب هو وحده كان سبباً لما أصابهما من يأس في ذلك المساء على حافة البحر.

تتذكر أنه حدثها غالباً عن الشاب الغريب ذي العينين الزرقاوين والشعر الأسود، لكنها لم تفكر على الإطلاق أن الأمر كان يتعلق بمن أحبته.

تتذكر الآلام الموجعة التي تحدّث عنها جيداً، الآلام التي تنتابه كل صيف إلى حد التدمير، الآلام التي كانت مجردة ومن دون أن ينتج عنها أي شيء.

يقول إنه دائماً ما ينخدع بالحكاية، ولكن بسبب لقائهما في هذا المقهى، فإن ذكرى الشاب الغريب بدت له ذكرى لا يشوبها الخطأ.

تقول لا، من المستحيل معرفة ما جرى، وأنهما كانا مثل الضحايا الذين لم يتعرف عليهم الشهود.

والدليل الوحيد الذي يفيد التعرف عليها، هو أنها امرأة في الصالة. وعليهما في كل الأحوال ألاّ يتعارفا هذا المساء في هذا المقهى على شاطئ البحر.

لقد ذهب ليحتسي الجعة في البيت المغلق، وكان يفعل ذلك أحياناً، أما هي فتفعل ذلك على حد سواء. كان يود أن يكون متأكداً من وجود القارب الأبيض هذا. وفي هذه الليلة اختلطت عليه الأمور مع ذكرى أخرى من مكان مشابه مغلق. يقول: من صالة فندق على شاطئ البحر.

تقول: كان القارب موجوداً بالفعل، فقد تحدث عنه الناس في المدينة. لقد قدم من الهافر، حمله جزر الماء حتى وسط البحر، وكان يجب أن يعود

نحو الأضواء على الساحل. كان يختاً له مقاس متوسط، من جنسية يونانية، وقال الذين رأوه إنه لا يحمل على ظهره سوى الطاقم.

تسأل فيما لو رأى ركاباً على ظهر هذا القارب.

لم يكن متأكداً من ذلك، ولكن عندما استدار القارب، يعتقد، أجل، لقد رأى رجلاً وامرأة يتكئان على متراس السفينة، يدخنان من دون شك ويتأملان السلسلة الطويلة من المقاهي المضاءة على امتداد الشواطئ. لكن كان عليهما أن ينزلا في القمرات عندما رحل القارب نحو القنال - ولم يرهما ثانية.

يتمدد قربها. إنهما في سعادة لم يألفاها قط، وكانت عميقة حتى أنهما كانا يخشيانها.

يقول لها إنه أخطأ الفهم، فهذا ليس النهار الذي يشرق، إنه الغسق، وإنهما يمضيان نحو ليلة أخرى، وعليهما أن ينتظرا المدة بكاملها لبلوغ النهار. وأنهما وقعا في خطأ بشأن تقدير انقضاء الساعات. تسأل عن لون البحر. أما هو فلم يعد يعرف.

يسمعها تبكي. يسأل عن سبب البكاء. لم ينتظر ردها، يسألها عمّا ينبغي أن يكون عليه لون البحر. تقول يتخذ البحر لونه من لون السماء - ويعني ذلك لوناً أقل من حالة الضوء.

تقول ربما كانا قد بدآا يحتضران.

يقول إنه لا يعرف شيئاً عن الموت، فهو رجل لا يعرف حينما أحب، وحينما وقع عليه الحب، وحينما يموت. في صوته مايزال هناك صراخ، ولكنه بعيد. يبكيان.

يقول لها، وهو يظن ذلك أيضاً، إنه يجب أن يتصرف فيما بينهما بناء على ما قالته في الأيام الأولى من حكايتهما. تخفي وجهها باتجاه الأرض، تبكي.

هذه هي الليلة الأخيرة، يقول الممثل.

يتوقف المشاهدون وينظرون في اتجاه الصمت، في اتجاه البطلين. يشير إليهما الممثل بالنظر. ولايزال البطلان معروضين في الضوء الباهر لضفة النهر، ومتمددين قبالة الصالة، وكأن الصمت قد أضناهما.

ينظران إلى الصالة، والخارج، والقراءة، والبحر. نظرتهما مرعوبة، مؤلمة، مذنبة دائماً لأنها كانت موضع اهتمام عام، اهتمام الممثلين على المسرح واهتمام المشاهدين في الصالة.

في الليلة الأخيرة، يعلن الممثل.

إنهما قبالة الصالة، قريبان وبعيدان ومتأهبان للاختفاء من كل الحكاية الإنسانية، ولا يتم ذلك بهبوط الضوء وإنما بصوت الممثل الوحيد الذي سيستدعي ثبات ممثلين آخرين، وتوقف حركاتهم، وإصغاءهم الإجباري والجهنمي للصمت الأخير.

في مساء تلك الليلة السادسة كان لنظرته أن تحيد عنها، أما هي، فمنذ أن اقتربت يجب أن تتغطى بالأغطية البيضاء.

ويقول الممثل، ربما هي العبارة الأخيرة التي ربما يجب أن تقال قبل الصمت، والتي كان ينظر إليها على أنها قيلت من قبلها، له، في الليلة الأخيرة من حبهما. وكان لها أن تناسب الشعور الذي اختبر أحياناً لمعرفة ما لم يعرفه أحد بعد، وللإعاقة التي من خلالها ليس بوسع أحد أن يوضح هذه الإعاقة بسبب تباين الكلمات واختلافها، وضعفها أمام جسامة الألم.

في عمق المسرح، يقول الممثل يجب أن يكون هناك حائط بلون أزرق. وهذا الحائط كان قد أغلق المشهد. إنه ضخم، ومنتصب في مواجهة الغروب، قبالة البحر، في البدء يفترض أن الأمر يتعلق بحصن ألماني مهجور، هذا الحائط محدد المعالم وكأنه غير قابل للهدم، مع أنه أصيب بتصدع جراء رياح البحر، ليل نهار، إلاّ أنه يتحمل كل جلد العواصف العاتية.

يقول الممثل إن هذا هو ما كان يدور حول فكرة الحائط والبحر حيث بني المسرح، لكي تكون حركة البحر قريبة أو بعيدة متجسدة دائماً على المسرح. وخلال وقت الهدوء، كانت خافتة من جراء سمك الحائط، ولكنها دائماً هناك بحسب إيقاع البحر الهادئ. ولا يخطئ أحد أبداً حول طبيعتها. فعندما كانت العواصف قوية، في بعض الليالي، يمكن أن تسمع، وبوضوح، هجوم الموج على حائط الغرفة، وتدفق الأمواج عبر الكلام.

لا شيء بعد الآن

C'est tout

(نص)

1999

إلى يان

لم أكن أعرف قط، قبل ذلك،

ماذا أكتب.

هلمّ وفكر بي.

إلى يان عاشقي الليلي.

التوقيع: مارغريت دوراس،

عاشقة العاشق، هذا العاشق المعبود،

في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٩٤،

باريس - شارع سان - بنوا

٢ تشرين الثاني - عصراً. شارع سان بنوا.

ي.أ: ما الذي بودك قوله عن نفسك؟

م.د: دوراس.

ي.أ: وما الذي بودك قوله عني؟

م.د: صعب.

فيما بعد، العصر ذاته.

أحياناً أكون فارغة لمدة طويلة.

أنا بلا هوية.

هذا الأمر مثير للرعب في البداية، ولكنه يحدث من خلال حركة السعادة، ومن ثم يتوقف.

السعادة، ذلك يعني موتي البطيء.

وغيابي عن المكان الذي أتحدث منه.

فيما بعد أيضاً.

إنها مشكلة الوقت، سأكتب كتاباً.

أريد ذلك، ولكن ليس من المؤكد أن أكتب هذا الكتاب.

إن الأمر مشكوك فيه.

٢٢ تشرين الثاني، عصراً،
شارع سان بنوا.

ي.د: أتخافين الموت؟

م.د: لا أدري، لا أعرف الإجابة.

لم أعد أعرف شيئاً منذ وصلت البحر.

ي.أ: وبرفقتي؟

م.د: قبل ذلك، والآن ها هو الحب بيننا.

الموت والحب. لك ما شئت، أنت من تكون.

ي.أ: تحديدك لنفسك؟

م.د: لم أكن، كما أنا في هذه اللحظة:

لا أعرف ماذا أكتب.

ي.أ: وكتابك المفضل على الإطلاق؟

م.د: السد، الطفولة.

ي.أ: والجنة، أتذهبين إليها؟

م.د: كلا، هذا يثير سخريتي.

ي.أ: ولماذا؟

م.د: لا أدري، انا لا أؤمن بشيء.

ي.أ: وبعد الموت، ما الذي يبقى؟

م.د: لا شيء، سوى الأحياء الذين يبتسمون،

والذين يتذكرون بعضهم بعضاً.

ي.أ: ومن ذا الذي سيتذكرك؟

م.د: القراء الشباب والتلاميذ الصغار.

ي.أ: وبماذا أنت منشغلة؟

م.د: بالكتابة. انشغال مأساوي، أي بما
له علاقة بمجرى الحياة. أنا في الداخل بلا جهد.

فيما بعد. العصر ذاته

ي.أ: هل من عنوان لكتابك القادم؟

م.د: نعم كتاب آيل للزوال.

٢٣ تشرين الثاني في باريس
الساعة الثالثة عصراً.

أريد أن أتكلم عن شخص ما.

عن رجل في الخامسة والعشرين على الأكثر.

رجل لا رغبة له بالموت

قبل أن يكون مطلوباً من الموت.

ليتك تحبه.

أكثر من ذلك.

جمال يديه،

هكذا، أجل.

يداه اللتان تتقدمان مع رابية – صار
جلياً، واضحاً، ومضيئاً مثل
براءة طفل.
أقبلك.
وأنتظرك مثلما أنتظر من يحطم هذه
البراءة الشاحبة، والوديعة والتي
لما تزال دافئة.
هذه البراءة
الممنوحة لك، بتمامها، من كل جسدي.

فيما بعد، العصر ذاته.

أردت أن أقول لك
بأنني كنت أحبك.
أصرخ به.
ولا شيء بعد الآن.

شارع سان – بنوا،
الأحد ٢٧ تشرين الثاني.

أن نكون معاً، فهذا هو الحب، والموت، والكلام،
والنوم

وما يأتي، فهو يوم الأحد.

ي.أ: ماذا قلت عن نفسك؟

م. د: لم أعد أعرف شيئاً عمن أكون.

أنا مع عاشقي

اسمه، لا أعرف

ليس ذلك مهماً.

أن نكون معاً وكأنني مع عاشق.

كم وددت أن يحدث ذلك.

أن نكون معاً وكأنني مع عاشق.

صمت، ومن ثم.

ي.أ: بماذا تنفع الكتابة؟

م.د: الصمت والكلام في آن.

الكتابة تعني الغناء أحياناً.

ي.أ: والرقص؟

م.د: من ضمنها أيضاً. إنها حالة شخص يرقص.

أنا أحببت الرقص كثيراً.

ي.أ: لماذا؟

م.د: لاأزال أجهل ذلك.

صمت، ومن ثم.

ي.أ: هل أنت موهوبة؟

م.د: أجل. يبدو لي ذلك حقاً.

الكتابة قريبة جداً من إيقاع الكلام.

الاثنين ٢٨ تشرين الثاني
الساعة الثالثة عصراً، شارع سان- بنوا.

ينبغي الكلام عن الرجل في رواية (المرض الذي

يؤدي إلى الموت).

من هو؟

وكيف يحدث ذلك؟

الكتابة عن الهزال،

بدءاً من هزال الرجل.

في يوم آخر.

ما عاد يظهر في الغرفة،

أبداً.

غير مجد أن تنتظر أغنيته، الساخرة

أحياناً، والحزينة أحياناً، والكئيبة أحياناً.

لقد تحول إلى طائر بلمح البصر
كنت أعرفه في الحقول.

فيما بعد، في اليوم الآخر ذاته.

أبلغ يان بأنه ليس هو الذي يكتب
الرسائل، ولكن بوسعه أن يوقع الرسالة
الأخيرة. وهذا ما يسعدني من الأعماق.
التوقيع: دوراس.

فيما بعد أيضاً.

الاسم الصيني لعاشقي
لم أتكلم إليه بلغته أبداً.

في يوم آخر. شارع سان – بنوا.

إلى يان
ما من شيء
السماء صافية.
لقد حدث هذا منذ السنوات التي أحببت فيها هذا الرجل
هذا الرجل الذي لم أمنحه اسماً بعد

الرجل الذي أحبه

الرجل الذي سيهجرني.

وما بقي، أمامي، وخلفي، قبلي وبعدي،

لا أهميه لذلك.

إنني أحبك.

أنت، لم تعد تستطيع أن تتفوه بالاسم الذي

أحمله والذي أسماني به أبواي.

عشاق مجهولون.

لندع الأمور إذا شئت

لأيام من الانتظار بعد.

تسألني ماذا أنتظر، فأجيب: لا أعرف

الانتظار

في صيرورة الريح

غداً ربما أكتب لك مرة أخرى.

يمكن للمرء أن يحيا هنا

يضحك ومن ثم يبكي

إنني أتكلم عن الزمن الذي ينبع من الأرض

ما عدت أتنفس.

ينبغي أن أتوقف عن الكلام.

فيما بعد.

كانت هناك تأثيرات عديده توسوس لي
بين الحين والحين، وعلى سبيل المثال موت
هذا الرجل الشاب. لم أعد أعرف كيف
يدعى، وكيف يدعونه. تفاهته مفرطة تماماً.

صمت، ومن ثم.

لم تعد لدي أية فكرة حول ما كنت
أؤمن بمعرفته أو أنتظر رؤيته
ها هو ذاك، ولا شيء بعد الآن

صمت، ومن ثم.

بداية نهاية هذا الحب
مفزعة حقاً، مع أسف.
في كل ساعة.
ومن ثم حلت الساعة التي تلت، مبهمة،

وهي تخرج من أعماق الزمان.

ساعة مرعبة،

رائعة ومرعبة.

لقد توصلت ألاّ أقتل نفسي إلاّ من أجل

فكرة موته

موته وحياته.

صمت، ومن ثم.

لم أقل ما هو أساسي حول شخصه،

وروحه، وقدميه، ويديه، وضحكته.

ما هو أساسي بالنسبة إلي،

هو أن أتجنب

نظرته عندما يكون وحيداً،

وعندما يكون

مضطرب الفكر.

إنه وسيم جداً. من الصعوبة بلوغ ذلك

عندما أبدأ بالكلام عنه، لم أعد

أتوقف.

وكأن حياتي حائرة، أكثر حيرة،

نعم، من حياته أمامي.

صمت. ومن ثم.

أود أن أستمر بالهذيان مثلما
أهذي في بعض أيام عصر صيف
كهذا الصيف.
ما عدت أملك منه طعماً ولا شجاعة.

١٤ تشرين الأول ١٩٩٤.

في ١٤ تشرين الأول ١٩١٤. لا يعني العنوان هنا
أحداً سوى الكاتبة. وإذاً، لا يريد العنوان أن يقول
شيئاً. العنوان ينتظر هذا أيضاً: عنواناً. إسمنتاً.
أنا على حافة تاريخ مشؤوم
ملغى.
ومع ذلك فالتاريخ مسجل على ورق أشقر.
لقد كان مسجلاً برأس رجل أشقر.
رأس طفل.
أما أنا، فأظن بذلك: أعتقد أنه رأسي هو
الذي كتب بالتوازي مع رأس هذا الطفل

وما تبقى من الكتابة، هو معنى الكتابة.
وعطر حب أيضاً، كان قد مر من هنا،
من خلال طفل.
حب بلا اتجاه كان يتحسس جسد طفل يكابد
قراءة المجهول من الرغبة.

سيغشى على الجميع عندما ينمحي نص
القراءة.

١٥ تشرين الأول.

أنا في تماس مع ذاتي وفق
حرية تتطابق معي.

صمت، ومن ثم.

لم يكن لدي أي أنموذج.
لقد تمردت رغم أنفي.
عندما أكتب أصاب بالجنون نفسه الذي
يسود الحياة. أذهب إلى كتل الصخر
عندما أكتب [صخور السد].

السبت ١٠ كانون الأول، الساعة الثالثة عصراً، شارع سان - بنوا.

اذهب إلى هناك مباشرة حيث العزلة.

أما أنا، فلا، لدي الكتب.

صمت، ومن ثم.

أشعر أنني تائهة.

والموت هو البديل.

إنه مرعب.

ما عدت أمتلك رغبة لبذل الجهد.

لا أفكر بأحد.

فما بقي قد انتهى.

أنا وحيدة.

وأنت أيضاً.

صمت، ومن ثم.

لم يكن البؤس هو ما تعيشه،

إنما

هو اليأس.

صمت، ومن ثم.

ي. أ: أنتِ من؟

م. د: دوراس، هذا كل شيء.

ي. أ: وماذا تفعل دوراس؟

م. د: تمتهن الأدب.

صمت، ومن ثم.

وماذا بعد الكتابة.

باريس في ٢٥ كانون الأول ١٩٩٤.

تساقط مطر الطفولة في الشمس،

فمضيت أراه،

بسعادة.

بعد ذلك كان علي أن أشرح لهم أن الأمر

كان طبيعياً. ومنذ قرون، ولأن الأطفال

لم يكونوا قد فهموا، فلم يكن بوسعهم أن

يفهموا ذكاء الإله.

بعد ذلك كان عليّ أن أستمر بالسير في

الغابة، وأغني مع الراشدين، والكلاب،

والقطط.

باريس ٢٨ كانون الأول.

رسالة لي.

يكفي أن تغير أو تترك

الرسالة

من دون أن يحدث شيء.

٣١ كانون الأول ١٩٩٤.

سنة سعيدة إلى يان أندريا.

أنا ضجرة من رسائلك القصيرة.

٣ كانون الثاني، شارع سان بنوا.

يان، مازلت هنا.

علي أن أرحل.

إنني أشعر بالخجل

أكتب لك وكأنني كنت أناديك

ربما بوسعك زيارتي

أعرف أن ذلك لن يفيد بشيء.

٦ كانون الثاني.

يان.

آمل أن أرآك بعد العصر.

من أعماق قلبي.

من أعماق قلبي.

١٠- شباط

فطنة سائرة في طريق الحرير،

كفأرة هاربة.

عندما تقال كلمة كاتبة لدوراس، فإن لذلك

وقع مزدوج.

أنا الكاتبة الجامحة والملهمة.

فيما بعد، العصر ذاته.

تفاهة التفاهات.

كل شيء تافه وتطارده الريح.

هاتان العبارتان توضحان أدب

الأرض بأجمعه

تفاهة التفاهات، أجل.

هاتان العبارتان لهما وحدهما
يفتح العالم: الأشياء، والرياح، والصراخ،
والأطفال، والشمس الغاربة خلال هذه الصرخات.
إن العالم يسعى إلى حتفه.
تفاهة التفاهات.
كل شيء تافه وتطارده الريح.

٣ آذار.

هي أنا من تطاردها الريح.

صمت ومن ثم.

هنالك أوراق عليّ أن أرتبها
وفق مهارتي.
فما أكتبه لا يمحى.

السبت ٢٥ آذار.

أنا متألمة لأن عقوداً من السنوات تمضي
سراعاً. لكنني مع ذلك في هذا الجانب
من العالم.

كم هي قسوة الموت شديدة.

في لحظة محدودة من الحياة، انتهت

الأشياء.

إنني أشعر بها هكذا، لقد انتهت الأشياء.

هكذا.

صمت، ومن ثم.

سأحبك حتى موتي.

سأحاول ألاّ أموت قبل الأوان.

وهذا كل ما علي أن أفعله.

صمت، ومن ثم.

يان، ألا تشعر بقلادة

دوراس؟

الجمعة المقدسة.

خذني بدموعك، وضحكاتك،

ونحيبك.

السبت المقدس.

أنا خائفة.

مما سأؤول إليه.

تعال.

تعال معي.

بسرعة، تعال.

فيما بعد، العصر ذاته.

هيا نرى الرعب، والموت.

فيما بعد أيضاً.

داعبني.

تعال واقترب من وجهي.

بسرعة. تعال.

صمت، ومن ثم.

أحبك حباً جماً.

لم أعد أعرف الكتابة.

الحب عظيم بيننا، إلى حد

الرعب.

صمت، ومن ثم.

لا أعرف أين أمضي.

أنا خائفة.

لنمض معاً على الدرب.

تعال بسرعة.

سأبعث لك الرسائل.

ولا شيء سوى ذلك

فزع ينجم عن الكتابة.

هنالك عديد الأشياء من هذا القبيل تخيفني.

الأحد ٩ نيسان. رامو.

نحن الاثنان وديعان.

صمت، ومن ثم.

حياتي مجدبة الآن.

بائسة.

لقد صرت بائسة.

سأكتب الآن نصاً جديداً، بلا رجل.

ولن يعود هنالك من شيء

لم أعد شيئاً

لم أعد أرى شيئاً

ذلك أن المهم الآن، هو بعض الوقت، قبل الموت.

فيما بعد.

ليس هنالك من قبلة أخيرة.

فيما بعد أيضاً.

لا ينبغي أن تفعل ذلك من أجل المال.

لا شيء بعد الآن.

ما عدت أملك شيئاً أقوله.

ولا حتى كلمة واحدة.

لا شيء يقال

هيا نخطو مائة متر على الدرب.

يوم الأحد ذاته.

إذا كان هناك من إله حنّان، فهو أنت، أنت

تؤمن به صلباً كالحديد، أنت.

صمت ومن ثم.

أنا، باستطاعتي أن أبدأ ثانية.

بدءاً من يوم غد.

وفي أي وقت.

أبدأ بكتاب ثانٍ

أكتب.

وفجأة، ها هو ذا!

أنا، اللغة، أعرفها

أنا قادرة على ذلك.

صمت، ومن ثم.

قل إذاً، هنا تؤكد دوراس نفسها،

في كل مكان

من العالم وفي العالم الثاني.

الأربعاء ١٢ نيسان عصراً،
شارع سان - بنوا.

تعال.

تعال في الشمس، وأيّاً كان الحال.

١٣ نيسان.

كتبت طوال حياتي.

مثل حمقاء، قمت بذلك.

ولكن لا بأس أن تكون الأمور هكذا.

ما كنت مغرورة أبداً.

فكتابة سيرتك الحياتية، يعني تعلم الكتابة،

ولكنها لا تشبع من جوع.

الأربعاء ١٩ نيسان الثالثة عصراً
شارع سان - بنوا.

يصدف أنني أمتلك ملاكاً

لقد اعتدت عليه الآن.

صمت، ومن ثم.

أنا طرف خشبة بيضاء
وأنت أيضاً،
ولكن بلون آخر.

١١ حزيران.

أنت موجود ما دمت موجوداً، وهذا ما يسحرني.

صمت، ومن ثم.

تعال بسرعة.
تعال، وامنحني قليلاً من قوتك.
تعال واقترب من وجهي.

٢٨ حزيران.

كلمة الحب تبقى حية.

٣ تموز الثالثة عصراً، نوفل - لو - شاتو.

أعرف جيداً أن لديك أمنيات أخرى، أعرف

جيداً أنك حزين، لكن ذلك سّيان.
أن تحبني، فهذا هو الأهم، وما بقي
سّيان. إنني قلقة.

فيما بعد، العصر ذاته.

أشعر أنني مثقلة بالوجود.
وهذا ما يمنحني الرغبة بالكتابة.
لقد كتبت كثيراً عنك عندما رحلت
عن الرجل الذي أحب.
أنت الفتنة الأكثر حيوية مما
رأيت.
أنت من كتب كل شيء
كل ما كتبته كان بوسعك أن تكتبه
أسمعك تقول إنك تخليت عن هذه
العبارة، عن تلك العبارة.

صمت، ومن ثم.

هل تسمع هذا الصمت
أنا، أنا أسمع العبارات التي قلتها

بدلاً من تلك التي تكتب.

صمت، ومن ثم.

كل شيء كنت قد كتبته أنا، بهذا الجسد الذي هو جسدك.
سأوقف الآن هذا النص لأستخرج منه
نصاً آخر منك، ينوب عنك، ويصير بديلاً لك.

صمت، ومن ثم.

وعندئذ، كيف يصبح، هذا الذي
تنوي كتابته؟

صمت، ومن ثم.

لا أحتمل صيرورتك.

١٤ تموز في نوفل.

مثل خوف من الموت مداهم
وبعد تعب لا يطاق.

صمت، ومن ثم.

تعال.

ينبغي أن نتكلم عن حبنا.

أن نجد الكلمات من أجل ذلك.

فربما ليس بالإمكان أن نعثر على الكلمات.

صمت، ومن ثم.

أحب الحياة، بالذات كما هي هنا.

حسن، لقد عثرت على الكلمات.

فيما بعد، النهار ذاته.

لا أريد شيئاً بعد اليوم

إن الكلام ما يزال يدور حولي، دائماً مثل

رصيف رتيب، ما يزال يدور حولي.

صمت، ومن ثم.

أنا، أريد أن يتوارى هذا أو أن

يقتلني الله.

صمت، ومن ثم.

تعال بسرعة.
أنا في أحسن حال.
الخوف أقل صرامة.
دعني هنا حيث أكون مع الخشية
من موت أمي، التي ظلت بكراً.
ولا شيء بعد الآن.

السبت ٨ تموز الثانية بعد الظهر، في نوفل.

ما عدت أملك شيئاً في رأسي.
إن الأشياء خاوية.

صمت، ومن ثم.

تم الأمر.
وانتهى كل شيء.
إنني أموت.

صمت، ومن ثم.

هذا المساء سنأكل شيئاً ما بشراهة

صحناً صينياً على سبيل المثال، صحناً من
الصين المدمرة.

١٠ تموز في نوفل.

لقد صرت جميلاً جداً
إنني أحدق فيك
أنت يان أندريا ستينييه.

٢٠ تموز – نوفل – بعد العصر

قبلاتك، أتخيلها إلى آخر
لحظة من حياتي.

إلى اللقاء

إلى اللقاء إلى لا أحد، وحتى ليس لك.
لقد انتهى كل شيء.
ولا شيء بعد.
ينبغي أن نقلب الصفحة.
تعال إذاً.

يجب أن نذهب إلى هناك.

لحظة من الوقت، صمت، ومن ثم.

سيحين الوقت الذي تقوم خلاله
بشيء ما. أنت لا تستطيع أن تستمر من دون أن تفعل
شيئاً. الكتابة ربما.

صمت، ومن ثم.

ماذا نفعل لنعيش بعض الوقت،
بعض الوقت أيضاً
ولا شيء بعد ذلك
لم أعد أنا الآن، إنما أنا شخص آخر
لم أعد أعرفه.

صمت، ومن ثم.

بإمكانك الآن أن تفتح قلبك.
ربما أنا، لم أكن مجنونة
بك.

صمت، ومن ثم.

للتخفيف من وطأة الحياة؟

لا أحد يعرف ذلك. ينبغي البقاء على قيد الحياة.

يجب عدم الارتماء في التهلكة.

ولا شيء بعد الآن.

ولا شيء مما قلته.

٢١ تموز.

تعال.

لا أحب شيئاً.

علي أن أجيء إلى جوارك.

فتعال إلى جواري

ولا شيء بعد ذلك.

أريد أن أكون في مأمن من ذلك.

تعال بسرعة وضعني في أي مكان.

عصراً فيما بعد.

لم أعد أستطيع الوقوف إطلاقاً
ولا أعتقد أنني قادرة على تسمية هذا
الخوف. ليس بعد.

هات فمك.
تعال بسرعة لنذهب بسرعة
بسرعة.
ولا شيء.
بسرعة.

السبت ٢٢ تموز. مطر.

لم تعد لدي حيلة لأنقص أو
أزيد من عمرك.

صمت.

تعال واقترب من وجهي.

صمت.

عليّ أن أحبك إلى حد ألاّ أفقدك.

صمت.

أنت لا أحد، لا شيء. نكره مضاعفة.

الأحد ٢٣ تموز.

لا أستطيع أن أصمم لأكون لا شيء.

صمت.

لا قوة لي لأكون مثلك، فهذه خدعة
آسفة عليها.

صمت.

تعال معي في السرير الفسيح فأنا
سأنتظر.
ولا شيء.

صمت.

أنا متجمدة بالجنون

ي.أ: أتريدين إضافة شيء ما؟

م. د: لا أعرف أن أضيف. أعرف الإبداع

فقط. فقط الإبداع.

الاثنين ٢٤ تموز.

تعال وأحبني.

تعال.

تعال إلى هذه الورقة البيضاء.

معي.

سأعطيك جلدي.

تعال.

بسرعة.

قل لي إلى اللقاء

ولا شيء بعد ذلك.

لم أعد أعرف شيئاً عنك

سأنطلق مع الطحالب.

تعال معي.

٣١ تموز.

أية حقيقة هي حقيقتي؟

إن كنت تعرفها، فقل لي ما هي.

أنا تائهة.

حدق بي.

الأول من آب، عصراً

أظن أن الأمر قد انتهى،

إن حياتي قد

انتهت.

لم أعد شيئاً.

لقد صرت مرعوبة تماماً.

لم أعد أقوى على الوقوف.

تعال بسرعة.

ما عدت أملك فماً،

ولا أملك وجهاً حتى.

باريس ١٢ تشرين الأول ٩٥.

تعال في حياتي

الساعة الثالثة والنصف عصراً

أنا ميتة. وانتهى كل شيء.

الثلاثاء ٣١ تشرين الأول.

لم يعد لدوراس وجود. لم أعد أحتمل شيئاً

وما عدت أملك شيئاً.

الساعة الخامسة عصراً

أنا عاشقة.

وأنت عاشق.

الجمعة ٣ تشرين الثاني

هل أنت من دعا ربه ليقتلني؟

الساعة الرابعة عصراً

ينبغي أن أمتلك الشجاعة
استعداداً للموت.

الخميس ١٦ تشرين الثاني

على طول البحر، وعلى امتداد حياتك.

لم أعد شيئاً. ولم أعرف أين أنا.
لقد انتهى كل شيء.
هناك أعمدة عديدة للاقتراب من السماء.
تعال.

١٨ تشرين الثاني.

أنا ميتة، وانتهى الأمر. وبعد ذلك سيكون
– موتي –
قاسياً عليك.

الأربعاء ٢٢ تشرين الثاني.

لقد صرت مجنونة لأنني ما عدت أملك شيئاً.
أعتقد أن حياتي قد انتهت.
فمي متعب. لم أعد أملك كلمات.
لم أعد أملك شيئاً، ولا حتى ورقة.

٢ كانون الأول.

انتهى كل شيء، لم أعد أملك شيئاً، لم يعد
لي فم، ولا حتى وجه. يا لها من فظاعة.

الأربعاء ٦ كانون الأول.

أنت غراب عجوز. عجوز
قذر.

الخميس ٧ كانون الأول

أنت تمتلك قوة في الوجه.

الجمعة ٨ كانون الأول.

أنت قدر الحمقى الكبير.

أنت سيء للغاية.

كل شيء فيك لا يطاق.

الساعة السابعة مساءً

ي. أ: بماذا تشعرين؟

م. د: بحالة الموت القادمة

هذه هي النهاية. انتهى كل شيء. هكذا.

٢٤ كانون الأول.

لم أتناول الطعام لأنني لم أعد أملك شيئاً

من الحياة

انظر: إن يدي ميتتان.

الثلاثاء ٢٦ كانون الأول.

أنا مرعوبة من الطعوم

النفسية.

هذا أمر مقزز.

هذا أمر مقزز.

منتصف الليل.

لا أريد شيئاً، ولا شيء يمكن أن يكون مشروطاً.
أريد قهوة، وعلى الفور.

٢٧ كانون الأول.

حدق بي. أنا خاوية. هذه هي
السكينة التي تنقصني.

٢٨ كانون الأول.

توقف عن الحرمان.

٢٩ كانون الأول.

لم أعد أملك شيئاً. إنني أموت.
أشعر بذلك.
اجلب لي صندوقاً.

بي رغبة أن أرى أمي.

عجّل.

إن جسدي يشتعل كله.

فيما بعد.

خسارة قلبك، أيزعجك هذا؟

فيما بعد.

تعال بسرعة وزرني،

واعطني شيئاً ما.

السبت ٣٠ كانون الأول
الساعة الثانية والنصف
بعد منتصف الليل.

أنت منعزل عن مملكة دوراس.

الأربعاء ٣ كانون الثاني ٩٦.

الفراغ، يعني الحرية

النساء اللواتي يغلقن أفواههن لا ينبسن ببنت شفة.

إنهن ينتظرن.

امرأة وحيدة لا تتكلم.

السبت ٦ كانون الثاني.

لم تكن الرقة شيئاً كبيراً.
فما هو مهم
هو التفكير المتطرف الذي
لا يقود إلى أي مكان، إلى لا شيء.

فيما بعد.

الضغينة، تفيد التماسك.

٧ كانون الثاني.

لم أعد أملك شيئاً في الرأس. أعرف ذلك.

٨ كانون الثاني.

لا شيء آخر أفعله سوى أن أمضي
ولا أدري إلى أين.

لقد أشعلت ناراً وكل شيء كان أبيض

لم أدرك أي معنى - وهذا ما يجعلني وحيدة،
لست حزينة، كلا، إنما وحيدة.

إنني أرى قفازات سوداء جانبي.

فيما بعد.

فمن أين ينبع هذا الأدب؟
إنني أحب الكتب المفتوحة.

تعال إلى داخل الغرفة البيضاء. تعال وانزع
ردائي الحريري. لم أعد أمتلك شيئاً أرتديه.

إنها لحياة رائعة تلك التي جعلتها مفتوحة لك.
ليس لذلك من معنى،
ولكن في نهاية المطاف، سنؤمن بذلك.

لم أنس كتاباً أبداً.

وحيدة من أجل لا أحد. بائسة

فقيرة. امرأة بائسة فقيرة. وهي من أكون

وهذا كل ما في الأمر.

لا تتركني أسقط، أتوسل إليك.

إنني أبكي من أعماقي.

دعني، أنا امرأة طليقة.

الخميس ١٨ كانون الثاني.

يدي تكتب.

١٩ كانون الثاني.

عذاب سرّي

يان، عليّ أن أعتذر منك، لا أعرف لماذا.

أنا جميلة. بصراحة، جميلة جداً.

٢٠ كانون الثاني.

هذه هي النهاية، هذه هي النهاية،

وهذا هو الموت.

وهذا هو الرعب. إنني برمة بالموت.

أشعر بشيء ما يحدث لي: الموت، وهو

مخيف بحد ذاته،

هنالك عيون مطفأة

أنا خائفة جداً.

بسرعة.

لا أصدق، وأعتقد أنني بت لا أفهم شيئاً.

ما من شيء. كل ما قمت به، لا شيء.

لا أستطيع كتابة الأشياء التي

تلحّ عليّ.

أحب أمي دائماً. وليس لدي ما أفعله، إنني

أحبها دائماً.

ليس بوسعك أن تفهم شيئاً أبداً، وهذا هو

التخلف إلى حد ما. أما أنا فأفهم قليلاً.

صفحة، بسرعة. أنجح، ثم أتوقف. بسرعة.

يان لقد أحببتك حباً جماً. أما الآن فينبغي أن
أبتعد.

لا أعرف الأيام التي سوّاها الله... ألم أكن رهن سرعة
شيء، وبعد أن أرى، ربما طوال الأيام الخمسة؟

الجمعة ٢٦ كانون الثاني.

في بضع ثوان شممت رائحة الأرض.
يان، اخرج من هذا المكان الإلهي، إنه مثير للرعب.
أنت مثير للخوف أحياناً.

حسبي أنني وحيدة. سأتخذ لي نمطاً من
أجل العمل على العمل.

أود أن أكتب كتاباً عني وعمّا أفكر فيه.

وهذا كلّ ما في الأمر.

مهما كان هناك من

سواد أو بياض.

أنت جدّ مقعر. أما أنا فدائماً

في الأعماق.

٢٩ كانون الثاني

الفراغ. الفراغ أمامي.

الثلاثاء ٣٠ كانون الثاني.

ما أعرفه هو أنني لم أعد أملك شيئاً.

والمرعب، هو أنه لم يعد هناك سوى الفراغ،

الفراغات. فراغ الدار الأخيرة هذا.

لم نكن اثنين. كل منا بمفرده.

٣١ كانون الثاني

دعني، هذه هي النهاية. دعني أمت.

إنني خجلة.

الجمعة ٢ شباط.

تتذكر كم كنت جميلة. وما من أحد
كان جميلاً بهذا الشكل.

١٥ شباط.

الغرفة القديمة التي كنا نلتقي فيها حباً.

١٦ شباط.

إنه لفضول مني أن أحبك إلى الأبد،
حتى عندما لا أحبك.

الاثنين ١٩ شباط.

أعرف ما أعاني منه الآن: هو الموت. هو الذي
ينتظرني: شكلي في معرض الجثث. إنه لأمر مرعب،
لا أريد.

فيما بعد.

كل هؤلاء الناس الذين يريدون موت دوراس.

فيما بعد.

ليس هنالك سوى الخجل، الخجل من كل شيء.
لم أعد شيئاً،
أي شيء.
لم أعد أعرف كائناً.
فما لم ينته، هو دلالة على وجود
شخصك.

فيما بعد.

هنالك الكتاب الذي يطلب موتي.
ي.أ: من الكاتب.
م.د: أنا. دوراس.

الثلاثاء ٢٠ شباط.

يان، أرجوك سامحني،
سامحني على كل شيء.

٢٦ شباط.

لقد عرفتك بكل قوة.

وسأرحل الآن

باتجاه درجة أخرى.

في اللامكان.

٢٨ شباط.

هذه هي النهاية.

كل شيء قد انتهى.

وهذا هو المرعب.

الخميس ٢٩ شباط الساعة الثانية بعد الظهر.

أحبك.

إلى اللقاء.

العقلاني والعاطفي
في
لا شيء بعد الآن

تتنازع نصوص مارغريت دوراس، معضلتان تشدان بعضهما بعضاً بأطراف خفية، الحب والموت، كما في هذا النص الجميل الذي قام بترجمته الصديق الأستاذ كامل عويد العامري، بعنوان (لا شيء بعد الآن). وبالطبع لسنا في صدد الدخول في مواجهة الترجمة إلى العربية من اللغات الأجنبية، فهذا الأمر ينطبق عليه قول شوبنهور عن التاريخ، في أن: التاريخ هو المؤرخون، والنص المترجم هو المترجمون له. فاذا كان المترجم أكثر ميلاً نحو العاطفي أو ينتقي مفرداته من القاموس المحسوس والملموس والواقعي من الكلمات، فإننا سنجد ذلك بارزاً، كما نتلمسه في (لا شيء بعد الآن). أما إذا توفر مترجم عقلاني يستقي قاموسه مما هو نقدي وفلسفي أو المنطق الذي يفسر الأشياء أو يترجم النص بصورة استقرائية وبعيداً عن العاطفي والرقيق والمحسوس، فإننا سنجد أمامنا ترجمة تميل إلى تفسير الأشياء أو ترجمتها على أساس محسوب بالمقدار الذي يسمح به العقل والمنطق.

نص مارغريت دوراس، بل أغلب نصوصها، يعتمد ثنائية الحب/ الموت، وبالعكس فهما يشكلان قطبي المعادلة القصصية في كل نصوصها (الحديقة، موديراتوكانتابيل، هوروشيما حبيبتي، لا شيء بعد الآن) المترجمة إلى العربية، فالشخصيات (تعيش داخل أسوارها الذاتية، المكرسة لحب مستحيل) على حد تعبير هنري هيل. ولعل عبارة الحب المستحيل أكثر

توافقاً مع عالم دوراس الملموس والمحسوس والعاطفي المتدفق في سيل من الكلمات، تبلغ في بعض جوانبها حد الثرثرة التي لا مفر من التعرف عليها. وعالمها القصصي والروائي يبدو لنا بسيطاً وممكناً، ولكننا كلما توغلنا في قراءتنا لنص (لا شيء بعد الآن)، سوف نكتشف (وهذا شأن بقية نصوصها) لحظتها الدرامية، متمثلة في جدلها الخاص، وثنائية هذا الجدل تتحدد بالبساطة نفسها التي تتضح أمام أبصارنا من خلال ذلك الجدل الذي يعتمد الموت مقابل الحب الذي تأمل ساردة الحكاية أن تنفيه، أي أن الحب هو العلاج الوحيد للتخلص من هيمنة الموت او ترصده.

مارغريت دوراس في (لا شيء بعد الآن)، أكثر وضوحاً في صرختها الدرامية، حتى تقترب منها سطوة الموت، وترتسم أمامها لحظة الجدل الضيقة التي تفقد الأشياء من حولها معناها ودلالتها، فالحب هو المستحيل الذي نأمل في الوصول إلى ضفافه؛ (تعال ينبغي أن نتكلم عن حبنا.. أن نجد الكلمات لذلك، فربما ليس بالإمكان أن نجد الكلمات..). إن الإحساس الذي يوفره نص (لا شيء بعد الآن) هو انطباع خاص، إحساس شخصي وشعور واضح باللاجدوى، ولكنها ليست لاجدوى (ألبير كامو) أو كتاب اللامعقول، إنه الإحساس بالأسف على ما يترصدنا في المجهول الذي يحدده تقدم الزمن في فضاء روحنا، فالالتياع الذي يوفره النص ليس هو الالتياع بالخسارة فقط، بل إنه نوع من الوعي بحدة الزمن وأن النهاية تقترب شيئاً فشيئاً، وربما بسرعة نادرة، وتبدو الكتابة بديلاً في بعض الحالات أو الأحيان، العلاج بالكتابة التي هي مشفى يخص عدداً من الناس الذين يتعاطون الكلمات والتعبير عن العذاب الروحي، والسقم أو الفشل في الوصول إلى شاطئ النجاة. الكتابة التي هي، في أفضل تعبير يترجمها،

خلق من أجل أن نبقى ونسمع أصواتنا الحبيسة داخل الورق، ولكن الكتابة في (لا شيء بعدالآن) محاولة لإبطال تأثير الموت الذي يدفعنا نحو الهاوية أو التخفيف من ضغطه ولاإنسانيته المأساوية، وحتى الكلمات لم تعد مجدية أمام هذا الإحساس الفاجع بالموت:

"- هنالك كتاب يطلب موتي

ي.أ: ومن الكاتب؟

م.د: أنا. دوراس".

في كل صفحة من صفحات (لا شيء بعد الآن)، يمتلكنا العجب من تلك الدوامة التي يخيم عليها شبح الموت والصرخة عبر الكلمات، نبتسم وسط لجاجة الموت السوداء وعجاجته، نبتسم لذلك الإصرار على مقاومة الشبح. وكلما استطردنا في الكتابة تبرز ثلاثية الأقانيم التي تسردها مارغريت دوراس، في "لا شيء بعد الآن" وهي: الحب.. الموت.. الكتابة. فهل تفعل الكتابة شيئاً إزاء الموت، أم سيبقى الحب وحده يقارع ضغط الموت علينا، حتى لو كان حباً مستحيلاً؟

القاص والروائي
أحمد خلف
٢٠٠٣/١/٢٥

عيون زرق شعر أسود

تتنازع نصوص مارغريت دوراس، معضلتان يشد بعضهما بعضاً بأطراف خفية، الحب والموت، وبالطبع لسنا في صدد الدخول في مواجهة الترجمة إلى العربية من اللغات الأجنبية، فهذا الأمر ينطبق عليه قول شوبنهور عن التاريخ، في أنَّ: التاريخ هو المؤرِّخون، والنص المترجم هو المترجمون له. فإذا كان المترجم أكثر مَيلاً نحو العاطفي أو ينتقي مفرداته من القاموس المحسوس والملموس والواقعي من الكلمات، فإننا سنجد ذلك بارزاً، كما نتلمسه في (لاشيء بعد الآن) أما إذا توفر مترجم عقلاني يستقي قاموسه مما هو نقدي وفلسفي أو المنطق الذي يفسِّر الأشياء أو يُترجم النص بصورة استقرائية وبعيداً عن العاطفي والرقيق والمحسوس فإننا سنجد أمامنا ترجمة تميل إلى تفسير الأشياء أو ترجمتها على أساس محسوب بالمقدار الذي يسمح به العقل والمنطق، نص مارغريت دوراس، بل أغلب نصوصها يعتمد ثنائية الحب/ الموت و بالعكس إذ يشكلان قطب المعادلة القصصية في كل نصوصها (الحديقة، موديراتوكانتابيل، هوروشيما حبيبتي، لاشيء بعد الآن) المترجمة إلى العربية، فالشخصيات «تعيش داخل أسوارها الذاتية، المكرّسة لحب مستحيل» على حد تعبير هنري هيل، ولعلَّ عبارة الحب المستحيل أكثر توافقاً مع عالم دوراس الملموس والمحسوس والعاطفي المتدفق في سيل من الكلمات تبلغ في بعض جوانبها حد الثرثرة التي لا مفر من التعرُّف عليها.

